الفصل الخامس
الثقافات الدينية
اليهودية والنصرانية والإسلام

بجانب هذه الثقافات المدنية -إن صح هذا التعبير- ثقافات أخرى روحية، تنشرها الأديان المختلفة، وأهمها: الإسلام والنصرانية واليهودية.

اليهودية والنصرانية: يقول الأستاذ «مِتز»: «إن مما يميز المملكة الإسلامية عن أوربا النصرانية في القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الإسلام، وليست كذلك الثانية، وأن الكنائس والبِيَع ظلت في المملكة الإسلامية، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة، وكأنها لا تكون جزءًا من المملكة، معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لا تعرفه أوربا في القرون الوسطى. كان اليهودي أو النصراني حرًّا أن يدين بدينه، ولكنه إن أسلم ثم ارْتَدَّ عوقب بالقتل. وفي المملكة البيزنطية كان عقاب من أسلم القتل»[1].

كانت الكنيسة تُحرِّم على النصراني أن يتزوج غير نصرانية إلا إذا تنصرت، وكذلك النصرانية لا تتزوج إلا نصرانيًّا. أما الإسلام فقد حرم على المرأة المسلمة أن تتزوج غير مسلم، وأحل للرجل المسلم أن يتزوج كتابيَّة يهودية أو نصرانية، وإن بقيت على دينها؛ لقوله تعالى: ﴿ **ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ** ﴾، فكان كثير من المسلمين يتزوجون يهوديات أو نصرانيات، ومنهن من

(١) لخصنا هذه الكلمة من كتاب متز «نهضة الإسلام» الذي ترجمه «خدابخش» من الألمانية إلى الإنجليزية.

تسلم، ومنهن من تبقى على دينها. وكان هذا سببًا من أسباب اتصال المسلمين باليهود والنصارى.

وقد كان بين الحنيفة والشافعية خلاف شديد في قتل المسلم بالكافر، فكان الحنفية يرون أن المسلم إذا قَتَلَ ذِمِّيًّا قُتل به، وخالفهم في ذلك الشافعي. وكان بين الفريقين جدال وحِجاج، تراه مبسوطًا في كتب الفقه. وكان مما احتج به الحنفية: أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب -لما قتل أبوه- اتهم في الاشتراك في تدبير قتل «جُفَيْنَةَ» وكان نصرانيًّا، فذهب إليه عبيد الله وقتله، ولما علاه بالسيف صلَّب بين عينيه، فلما استخلف عثمان بن عفان، دعا المهاجرين والأنصار، فقال: أشيروا عليَّ في قتل هذا الرجل (يعني عبيد الله بن عمر) فَتَق في الدين ما فتق، فاجتمع المهاجرون والأنصار فيه عَلَى كلمة واحدة، يأمرونه بالشدة عليه، ويحثونه على قتله. فإشارة المهاجرين والأنصار دليل على أن المسلم يقتل بالذمي، ولم يفعل عثمان ذلك؛ لأن عمرو بن العاص أشار عليه بألا يفعل؛ لأن الحادثة كانت قبل أن يتولى عثمان ويكون له على الناس سلطان[1]... إلخ.

وقد وقع في أيام أبي يوسف القاضي: أن مسلمًا قتل كافرًا، فحكم على المسلم بالقَوَد، فقال أحد الشعراء:

يَا قاتِلَ المُسْلِمِ بالكافِرِ ... جُرْتَ وما العادلُ كالجائِرِ
يا مَنْ ببغداد وأطْرافِها ... مِنْ عُلماء الناس أو شاعِرِ
اسْتَرْجِعُوا وَابْكُوا علَى دِينكُمْ ... واصْطبِروا فالأجْرُ للصَّابِرِ
جَارَ علَى الدِّينِ أبو يُوسف ... بِقَتْلِهِ المؤمِنَ بالكافِرِ

(١) ويقول ابن قتيبة: إن عبيد الله بن عمر بن الخطاب -لما قتل أبوه- جرد سيفه فقتل بنت أبي لؤلؤة وقتل الهرمزان وجفينة -رجلًا أعجميًّا- وقال: لا أدع أعجميًّا إلا قتلته، فأراد علي قتله بمن قتل فهرب إلى معاوية فقتل في صفين. المعارف ٦١، ٦٢.

وخاف الرشيد الفتنة، فأمر أبا يوسف أن يتدارك الأمر بحيلة لئلا تكون فتنة، فطالب أبا يوسف أصحابَ الدم ببينة على الذِّمَّة[١] وثبوتِها، فلم يأتوا فأسقط القَوَد[٢].

وكان الشافعي يرى أن القَوَد لا بد فيه من تساوي القاتل والمقتول في الحرية والإسلام، فإنْ فضَلَ القاتلُ المقتولَ بحرية أو إسلام، فقتل حرٌّ عبدًا، أو مسلم كافرًا، فلا قَوَد عليه.

وكان الشافعي يرى أنه يصح أن يشترك أهل الذمة من يهود ونصارى في الحروب مع المسلمين –أي: أن يُجَنَّدُوا في الجيش الإسلامي– إذا رأى الإمام ذلك، واستدل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان في غزاة خَيْبَرَ بعدد من يهود بني قَيْنُقاع كانوا أشداء، واستعان في غزاة حُنَيْن بصفوان بن أمية وهو مشرك، فلا بأس أن يستعان بالمشركين على قتال المشركين إذا خرجوا طوعًا، ويرضخ لهم ولا يسهم لهم[٣].

ولسنا نتعرض هنا لعلاقة اليهود والنصارى بالحكومة الإسلامية؛ من حيث الضرائب، وعلاقتهم برؤسائهم، وعلاقة الرؤساء بالخلفاء، ومدى استقلالهم، والمقارنة بين حال النصارى في المملكة الإسلامية، والمسلمين في الممالك النصرانية،

(١) في الاصل (الدية) وهو خطأ على ما يظهر.

(٢) الأحكام السلطانية ٢١٩، وقد قال الجاحظ: «إن قضاتنا أو عامتهم يرون أن دم الجاثليق والمطران والاسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة» ثلاث رسائل: ١٨.

(٣) الأم ٤/ ١٧٧، ومعنى يرضخ لهم: يعطيهم عطاء ليس بالكثير. وقد روى الخطيب البغدادي عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل معه قوم من اليهود في بعض حروبه فأسهم لهم مع المسلمين. تاريخ بغداد جزء ٤/ ١٦٠.

وكيف كان اليهود والنصارى يتقاضون في الأصقاع الإسلامية، وعلاقتهم بالقضاة المسلمين، ونحو ذلك من الشئون. فهذا بالتاريخ السياسي أشبه، وإنما غرضنا هنا شرح ما كان لهم من أثر في الثقافة.

كان اليهود والنصارى منتشرين في المملكة الإسلامية، وكانوا عددًا كبيرًا؛ فقد ذكر بنيامين أحد الرحالة اليهود الذين رحلوا سنة ١١٦٥م أي نحو سنة ٥٦٠ هجرية «أن عدد اليهود في المملكة الإسلامية غير العرب كانوا نحو ثلاثمائة ألف» وكانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات، وفي جزيرة ابن عمر والمَوْصل وعُكْبرة وواسط وفي بغداد والحلة والكوفة والبصرة، وفي كثير من بلاد فارس، في همذان وأصفهان وشيراز، وكانوا في غزنة وسمرقند، وكان في فارس بلدتان تسمى كل منهما «اليهودية»، إحداهما بجرجان، والأخرى بأصبهان. وكان ببغداد إذ ذاك نحو ألف يهودي، وكان فيها درب يسمى درب اليهود، نسب إليه قوم من المحدِّثين منهم: أبو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحيى اليهودي[١]، وفي أوائل القرن الثالث الهجري كان يجبى من الجزية من أهل بغداد مائة وثلاثون ألف درهم، وفي أوائل القرن الرابع كان يجبى منهم ستة عشر ألف دينار. والعددان يدلان على أن من كان ببغداد إذ ذاك من غير المسلمين ممن يدفع الجزية نحو خمسة عشر ألفا[٢]. ويقول ابن حَوْقَلَ: إن النصارى في مدينة الرها وتكريت أكثر عددًا.

وكان أغلب الماليين في الشام يهودًا، وأغلب أطباء القصور في بغداد نصارى، واشتهر اليهود باحترافهم حرفًا خاصة، كالصيرفة ودباغة الجلود والصياغة[٣]. وقال

(١) معجم البلدان في مادة يهودية.

(٢) متز نقلًا عن خرداذبه.

(٣) Mez، وكذلك ذكر الجاحظ في رسالة الرد على النصارى ص١٧.

الجاحظ: «إن النصارى اتخذوا البراذين الشِّهرية، والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصَّوالجة، وتحدقوا المدبني، ولبسوا المُلْحَم والمطبَّقة، واتخذوا الشاكريَّة، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي»[1].

على كل حال، كان بين المسلمين كثير من أهل الأديان الأخرى، وخاصة اليهود والنصارى، وقد خالطهم المسلمون، بل اتخذوا منهم أصدقاء. قال الجاحظ: أنشدنا أبو صالح مسعود بن قِنْدِيل الفَزَارِي في ناس خالطهم من اليهود:

وَجَدْنا في اليهود رجالَ صِدْقٍ ... على ما كان من دِينٍ مُرِيبِ
لَعَمْرُك أنني وابْنَي غريض ... لِمِثْل الماءِ خالطه الحليبُ
خَلِيلانِ اكتسَبْتُهما وإني ... لَخِلَّة ماجِدٍ أبدًا كَسُوبُ

وقال أبو الطمحان الأسدي -وكان نديمًا لناس من بني الحدَّاء، وكانوا نصارى فأحمد ندامتهم فقال:

كأنْ لَمْ يَكُنْ في الْقَصْرِ مقاتِل ... وَزَوْرَةَ ظِل نَاعِمٌ وَصَدِيقُ
ولَمْ أرِدْ البَطْحَاءَ أمْزُجُ مَاءَهُ ... بِخَمْرٍ مِنَ البَرُّوقَتَيْنِ عتيقُ
مَعِي كلَّ فَضْفَاضِ الثِّيَابِ كأَنَّهُ ... إذا ما جَرَى فِيهِ المُدَامُ فَتِيقُ
بَنُو الصلب والحَدَّاء كلَّ سَمِيدَعٌ ... لَهُ في الْعُرُوقِ الصَّالِحَات عُروقُ
وإني وإنْ كانوا نصارى أَحِبُّهم ... ويرتاح قلبي نحوهم ويتوقُ[2]

ويقول أبو نواس:

سَأَلْتُ أخي أبا عيسى ... وجبريلٌ له عَقْلُ[1]

(١) ثلاث رسائل ص١٨، والملحم: نوع من الثياب سداه حرير ولحمته غير حرير، والشاكرية: جمع شاكري معرب «جاكر» وهي بالفارسية بمعنى الأجير.
(٢) الحيوان ٥/ ٥٢.

فقلـــت: الـــرَّاحُ تُعجبنـــي فقـــال كثيرهـــا قتـــلُ
رأيـــتُ طبـــائع الإنـــسا ن أربعـــةً هـــي الأصـــلُ
فأربعـــــــة لأربعـــــــة لكـــل طبيعـــة رِطْـــلُ

وبعد، فقد كان لكل من اليهودية والنصرانية ثقافة، وقد تسرب إلى المسلمين شيء منها، فلنحاول بيان ذلك.

اليهودية: أهم منبع للثقافة اليهودية التوراة، وقد ذكرت في القرآن الكريم، ووصفت بأنها كتاب من كتب الله المنزلة: ﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾، وورد فيه أن عيسى أتى بعدُ مصدقًا لما في التوراة ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾. وقد نص القرآن على بعض أحكام وردت في التوراة ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ﴾ .

وأشير في الأحاديث كذلك إلى التوراة، وذكر فيها بعض أحكامها.

من ذلك ما روى أبو داود عن ابن عمر، قال: أتى نَفَر من اليهود فدَعَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القَفِّ، فأتاه في بيت المِدْراس، فقالوا: يا أبا القاسم، إن رجلًا منا زنى بامرأة فاحكم، فوضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فجلس عليها، ثم قال: «**ائتوني بالتوراة**» فأُتي بها، فنزع الوسادة من تحته، ووضع

---

(١) أبو عيسى هو جبريل بن بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع النصراني، كان طبيبًا للرشيد.

التوراة عليها، ثم قال: آمنت بك وبمن أنزلك، ثم قال: «**ائتوني بأعْلَمِكم**»، فأتى بفتًى شابٍّ، ثم ذكر قصة الرجم[١].

وقد اختلفت أنظار المسلمين إلى التوراة على أقوال ثلاثة؛ فقال قوم: إنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة، ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى. وتعرض هؤلاء لتناقضها، وتكذيب بعضها لبعض[٢]. وذهبت طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام إلى أن التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل، وهذا مذهب البخاري، قال في صحيحه: ﴿ **يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ** ﴾ يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى، ولكنهم يتأولونه على غير تأويله، وهذا هو ما اختاره الرازي في تفسيره. ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرق ومغاربها، ولا يعلم عدد نسخها إلا الله، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ، بحيث لا يبقى في الارض نسخة إلا مبدلة مغيرة، والتغيير على منهاج واحد، وهذا ما يحيله العقل ويشهد ببطلانه، قالوا: وقد بين الله تعالى لنبيه عليه السلام محتجًّا على اليهود بها: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ إلخ. وذهبت طائفة ثالثة إلى أنه قد زيد فيها، وغُيِّرَ ألفاظ يسيرة، ولكن أكثرها باقٍ على ما أنزل عليه، والتبديل في يسير منها جدًّا. وممن اختار هذا القول ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، ومثل لذلك بماجاء فيها: «إن الله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم عليه السلام: اذبح ولدك بكرك أو واحدك إسحاق»، فإسحاق زيادة منهم في لفظ التوارة لأدلة ذكروها[٣].

---

(١) انظر كذلك البخاري في باب التوحيد وباب الاعتصام وباب التفسير.

(٢) من أشد من ذهب إلى هذا الرأي ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل، وقد بحث فيه بحثًا مفصلًا وأطال في التدليل على ما في التوراة التي بين أيدينا من تناقض فارجع إليه.

(٣) انظر ذلك مطولًا في كتاب إغاثة اللهفان لابن القيم الجوزية ص٤١٥ وما بعدها.

وكلمة التوراة يستعملها المسلمون كثيرًا للدلالة على كل الكتب المقدسة عند اليهود، فتشمل الزبور وغيره، كما يستعملها اليهود أنفسهم أحيانًا.

وكان لليهود بجانب ذلك سنن ونصائح وشروح، لم تنقل عن موسى عليه السلام كتابةً، وإنما تدووِل نقلها شفاهًا ونمت على تعاقب الأجيال، ثم دوِّنت بعد، وهذا هو المسمى بالتَّلْمود، والتلمود مختلف فيه فيما بينهم، فمنهم من يقبله وهم طائفة الربانيين، ومنهم من لا يقبله وهم طائفة القرَّائين.

فأما التوراة بالمعنى الدقيق فخمسة أسفار: السفر الأول سفر التكوين أو الخَلْق، وقد ذكر فيه خلق العالم، وقصة آدم وحواء وأولادهما، ونوح والطوفان وتبلبل الألسنة، ثم قصة إبراهيم عليه السلام وابنه إسحاق وابنيه يعقوب وعيصو، ثم قصة يوسف.

والسفر الثاني يسمى الخروج -أي خروج اليهود من مصر- وفيه قصة موسى من ولادته وبعثته، وفرعون وخروج بني إسرائيل من مصر، وصعود موسى الجبل وإيتاء الله له الألواح.

والسفر الثالث سفر اللاوِيِّين -أي الأحْبار- وفيه حُكْم القُرْبان والطهارة، وما يجوز أكله، وغير ذلك من الفرائض والحدود.

والسفر الرابع سفر العدد، بعضه في الشرائع، وبعضه في أخبار موسى وبني إسرائيل في التيه وقصة البقرة.

والسفر الخامس سفر التثنية أي إعادة الناموس.

وفي العهد القديم غير التوراة سفر يوشع، وهو في استيلاء بني إسرائيل على فلسطين، ثم سفر القضاة أي الحكام، ثم أربعة أسفار الملوك الأول في أخبار شمويل أو سمويل وشاول أي طالوت، والثاني في ذكر داود، والثالث والرابع في سليمان بن داود ومن ملك بني إسرائيل من بعده.

وأما التلمود فمجموعة من المناقشات الدينية الأولى، مع شروح لرجال الدين من الأجيال المتعاقبة، فيه القوانين اليهودية من قانون عقوبات وقوانين مدنية، وبعبارة أخرى: فيه تحديد العلاقات الدينية والدنيوية، يسجل أفكار اليهود في حياتهم وتقاليدهم في نحو ألف عام، ويمزج مزجًا تامًّا نواحي الشعب الخليقة بنواحيهم الدينية.

وقد جُمع التلمود في نحو ثلاثة قرون، ابتدءوا بجمعه في أوائل القرن الرابع للميلاد، وتم في نحو نهاية القرن السادس. ويسمى القسم الأول منه المِشْنَا «**Micgna**» وهو مجموعة أحكام استندت على العهد القديم، وقد كتب باللغة العربية الأولى. والقسم الثاني يسمى الجيمارة «**Gemara**» ويتضمن مباحثات لربانييهم -أي فقهائهم- وقد كتب باللغة الآرامية.

وحول هذه الكتب الدينية نسج كثير من الأدب اليهودي والقصص، والتاريخ والتشريع والأساطير.

وكان بين اليهودية والوثنية اليونانية وبين اليهودية والمسيحية نزاع شديد في الشرق، وخاصة في الإسكندرية -أهم مراكز الثقافة اليونانية- واضطر كثير من اليهود أن يتعلموا اللغة اليونانية ويتكلموا بها. وكان هذا النزاع في نوع الحياة الاجتماعية وفي الثقافة وفي الدين، فاضطر كثير من اليهود أن يبدلوا حياتهم

وأنظارهم نحو الحياة اليونانية، كانوا يحرمون غشيان معاهد التمثيل تمثل فيها روايات يونانية، فنشأ جيل جديد لا يرى في ذلك من بأس، وهكذا. واضطروا أن يأخذوا بحظ من الثقافة اليونانية، وواجهوا مشكلة جديدة وهي إلى أي حد يقبلون تعاليم اليونان مع الاحتفاظ بأصول اليهودية؟ وكان من أشهر هؤلاء «فيلو» الذي حاول أن يوفق بين المعتقدات الدينية اليهودية وبين العلم اليوناني. فكان من ذلك يهودية مفلسفة، لا هي يهودية صرفة ولا فلسفة صرفة. اقتبس «فيلو» من أفلاطون والرواقيين، واستعمل المصطلحات الفلسفية. ولكنه استخدم ذلك كله لإحياء العاطفة الدينية، وتذليل الصعاب التي تواجهها اليهودية. وقد انتفعت الكنيسة النصرانية بعدُ بموقف اليهود إزاء الفلسفة اليهودية؛ لأنهم واجهوا ما واجه اليهود قبلهم[١].

وعلى الجملة، فقد كان لليهود ثقافة دينية وأدبية وتاريخية وقانونية، مزجت يعدُ بالثقافة اليونانية.

وقديمًا تسربت الثقافة اليهودية إلى من جاورهم من العرب، جاء في الحديث عن ابن عباس: «كان هذا الحي -من الأنصار- وهم أهل وثن مع هذا الوحي من اليهود وهم أهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلًا عليهم في العلم، وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم»[٢]، وكان ذلك قبيل الإسلام كما يدل عليه تتمة الحديث.

وكان بعض المسلمين في العصور الأولى يطَّلعون على الكتب الأخرى المنزلة ويتلونها، روى ابن سعد في الطبقات أن أبا الجَلْد واسمه جيلان بن فَرْوَة كان يقرأ

((١) انظر الفصل الذي كتب في العلاقة بين اليهودية والفلسفة اليونانية في كتاب The Legacy of Israel.

((٢) أخرجه أبو داود.

الكتب. وروي عن ميمونة بنت أبي الجلد قالت: كان أبي يقرأ القرآن في كل سبعة أيام ويختم التوراة في ستة، يقرؤها نظرًا، فإذا كان يومُ يختمها حُشِد لذلك ناس، وكان يقول: كان يقال تنزل عند ختمها الرحمة[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة قال: «كان أهل الكتاب يقرءُون التوراة بالعِبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم، ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ ﴾**»[٢]. ويروون عن وَهْب بن مُنبه أنه كان يقول: «لقد قرأت اثنين وتسعين كتابًا، كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل»[٣].

تسربت هذه الثقافة اليهودية إلى المسلمين من طرق أهمها: من دخل في الإسلام من اليهود، وخاصة مُسْلمة اليمن؛ ككعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما. وقد دخل في الإسلام من اليهود كثيرون، كان منهم بعض الصحابة وبعض التابعين، وظلوا يتتابعون إلى عصرنا الذي نؤرخه، وكان منهم محدِّثون ومنهم قصَّاص، ومنهم قرَّاء، ومنهم أخباريون. وأشهر من عَرَفنا في عصرنا هذ ممن أصله يهودي: أبا عبيدة مَعْمَرَ بن المُثَنى. والآن نعرض لأنواع المعارف التي تأثرت باليهود.

فأول ذلك تفسير القرآن؛ ذلك القرآن الكريم والتوراة يتفقان -كما رأيت- في إيراد بعض المسائل، وخاصة في قصص الأنبياء. ولكن للقرآن مَنْحى يخالف منحى

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٧ قسم أول ص١٦١.

(٢) وفي البخاري أيضًا حديث آخر يخالف هذا وينهى عن سؤال أهل الكتاب فانظره في باب شهادة أهل الكتاب.

(٣) ابن سعد ٥/ ٣٩٧.

التوراة، فإنه يقتصر على مواضع العِظة، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل، فهو لا يذكر -غالبًا- تاريخ الوقائع ولا أسماء البلدان التي حصلت فيها، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث، ولا يدخل في تفاصيل الجزئيات، إنما يتخير ما يمس جوهر الموضوع وموضع العبرة. لنأخذ لذلك مثلًا قصة آدم، فقد وردت في القرآن الكريم في مواضع أطولها ما ورد في سورة البقرة منها: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

فترى من هذا أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة، ولا لنوع الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها، ولا بيَّن الحيوان الذي تقمَّصه الشيطان ليزلهما، ولا ما كان من تفصيل الحوار بين الله تعالى وآدم، ولا للبقعة التي طرد إليها آدم بعد خروجه من الجنة... إلخ. ولكن التوراة تعرضت لكل ذلك وأكثر منه؛ فأبانت أن الجنة في عدن شرقًا، وأن الشجرة التي نهيا عنها كانت في وسط الجنة، وأنها شجرة الحياة، وأنها شجرة معرفة الخير والشر، وأن الذي خاطب حواء هو الحية، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي أغوتهما بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب، وانتقم من حواء بتعبها هي ونسلها في حَبَلها... إلخ، فجاء المفسرون للقرآن ينقلون عن مُسْلِمة اليهود ما جاء في كتبهم ويضعونه شروحًا. فيحكي الطبري مثلًا عن وهب بن منبه أن هذه الشجرة كان لها ثَمَرٌ تأكله الملائكة لخلدهم، فلما أراد إبليس أن يستزلهما دخل في جوف الحية، وكانت للحية أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله، فلما

دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته إلخ، فلما أكلا قال الله لحواء: يا حواء، أنت التي غررت عبدي فإنك لا تحملين حملًا إلا حملته كَرْهًا، فإذا أردتِ أن تضعي ما في بطنك أشرفتِ على الموت مرارًا، وقال للحية: أنت الذي دخل الملعون في جوفك حتى غر عبدي، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب إلخ. وروي عن ابن عباس نحو هذه القصة[١]. وتقرأ تفسير الطبري على هذه الآيات فيتجلى لك بوضوح أنهم أخذوا ما في التوراة وشروحها، والأخبار التي رويت حولها، ووضعوها تفسيرًا لآيات القرآن الكريم. وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة، وعن إسرائيل عن أسباط عن السُّدِّي مرة أخرى. وهكذا فعلوا في كل ما ورد في القرآن من قصص وردت في التوراة. ولم يكن كل هؤلاء اليهود علماء باليهودية مدقِّقين، بل كان منهم عوام يعرفون -كما يقول ابن خلدون- ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات[٢]. وما زالت هذه الإسرائيليات تكثر وتنمو، حتى امتلأت بها الكتب أمثال قصص الأنبياء للثعلبي.

وعُني المسلمون بنقل تاريخ بني إسرائيل وأنبيائهم كما فعل الطبري في تاريخه، وكما فعل ابن قتيبة في كتابه المعارف. وقد أثبت العلم أن كثيرًا مما نقل من تاريخ بني إسرائيل غير صحيح، مما يدل على أن الروايات التي نقلت كان كثير منها ينقل عن

(١) تفسير الطبري ١/ ١٨٦ وما بعدها، وقد روى الجاحظ في الحيوان ٤/ ٦٤ عن كعب الأحبار أنه قال: مكتوب في التوراة أن حواء عوقبت بعشر خصال، وأن آدم عوقب بعشر خصال، وأن الحية عوقبت بعشر خصال، ثم ذكرها، وشك الجاحظ في ذلك؛ لأنها ليست في التوراة وقال: إن صحت الرواية عن كعب فإنه إنما كان يعني كتب اليهود جميعها.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣٦٧.

العوام وأشباههم. ونجد ابن قتيبة يقارن بين ما يرويه وهب بن منبه وبين ما في التوراة، ويبين أحيانًا ما بينهما من خلاف.

وكان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الإسلامية، فابن الأثير يروي عند الكلام على أحمد بن أبي داود «أنه كان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة، وأخذ ذلك عن بشر المريسي، وأخذ بشر عن الجهم بن صفوان، وأخذه الجهم عن الجَعْدِ بن دِرهم، وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم وختنه، وأخذه طالوت عن ختنه لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم، وكان لبيد يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت، وكان زنديقًا فأفشى الزندقة»[1].

وروى صاحب العقد الفريد عن الشعبي أنه قال لمالك بن معاوية: «أحذرك الأهواء المضلة، وشرها الرافضة، فإنها يهود هذه الأمة، يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية. ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله، ولكن مقتًا بأهل الإسلام وبغيًا عليهم، وقد حرقهم علي بن أبي طالب... وذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود. قالت اليهود: لا يكون المُلك إلا في آل داود، وقالت الرافضة: لا يكون الملك إلا في آل علي بن أبي طالب، وقالت اليهود: لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادي منادٍ من السماء، وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل بسبب من السماء. واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة. واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئًا، وكذا الرافضة. واليهود لا ترى على النساء عدَّة، وكذا الرافضة. واليهود تستحل دم كل مسلم، وكذلك الرافضة. واليهود حرَّفوا التوراة، وكذلك الرافضة حرفت القرآن. واليهود

(١) ابن الأثير ٧/ ٢٦.

تنتقص جبريل وتقول: هو عدونا من الملائكة، وكذلك الرافضة تقول: غلط جبريل في الوحي إلى محمد بترك علي بن أبي طالب، واليهود لا تأكل لحم الجَزور وكذلك الرافضة... إلخ»[١].

واجه اليهود كثيرًا من المسائل وبحثوا عنها واختلفوا فيها، فقد بحثوا في النسخ، وقالوا: إن الشريعة لا تكون إلا واحدة، وقد بدأت بموسى وتمت به، فلا يجوز النسخ؛ لأن النسخ في الأوامر بَدَاءٌ، ولا يجوز البداء على الله.

وتكلموا في التشبيه؛ لأنهم وجدوا التوراة مملوءة بألفاظ تشعر بالتشبيه مثل: الصورة والمشافهة والتكلم جهرًا والنزول على طور سَيْناءَ والاستواء على العرش وجواز الرؤية.

وتعرضوا للرَّجعة أي رجوع بعض الأفراد إلى الحياة بعد الموت، وجاءهم ذلك من أن عُزَيرًا أماته الله مائة عام ثم بعثه وقالوا: إنه مات وسيرجع، وقال بعضهم: غاب وسيرجع[٢].

وهذه الأقوال والخلافات كلها تسربت إلى المسلمين عمن أسلم من اليهود، فرأينا المسلمين يبحثون في جواز النسخ في القرآن، كما بحث اليهود في نسخ التوراة. ويذهب جمهور المسلمين إلى جواز نسخ الحكم دون النص، وإلى أن ذلك وقع فعلًا، ويخالف في وقوعه أبو مسلم الأصفهاني. ونرى المسلمين في كتب أصول الفقه -عند الكلام على النسخ- يناقشون اليهود في رأيهم، ويجادلونهم ويردون عليهم[٣] مما يؤيد

---

(١) العقد ١/ ٢٦٩.

(٢) حكى هذه الأقوال كلها عن اليهود الشهرستاني في الملل والنحل ص٨٥ و٨٦ فانظرها.

(٣) انظر أصول ابن الحاجب ٢/ ١٨٨.

وجهة نظرنا في أن اليهود هم السبب في إثارة هذه المسألة، ورأينا بعض الشيعة يرى البداء الذي أنكره اليهود. وأقدمُ من قال به المختار بن عبيد الذي كان يدعو لمحمد ابن الحنفية. ويقول الشهرستاني: «إنما صار المختار إلى البداء لأنه كان يدَّعي علم ما يحدث من الأحوال، إما بوحي يوحى إليه، وإما برسالة من قبَل الإمام. فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدوث حادثة فإن وافق كونه قولَه جعله دليلًا على صدق دعواه، وإن لم يوافق قال: قد بدا لربكم. وكان لا يفرق بين النسخ والبداء، فإذا جاز النسخ في الأحكام جاز البداء في الأخبار»[١]. وقد اعتنق كثير من الشيعة مذهب البداء وطبَّقوه في كثير من مسائلهم التاريخية، وقال أحد أئمتهم: «لا يعبد الله بأحسن من القول بالبداء»؛ لأنه يفتح باب التوبة في طلب العفو من الله، وكان اليهود أقوى المعارضين في البداء[٢].

كذلك انتقل إلى المسلمين ما دار بين اليهود في التشبيه؛ فقد وضعت للبحث الآيات القرآنية التي تُشعر بذلك مثل: ﴿ **يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ** ﴾، ﴿ **ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ** ﴾، ﴿ **وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ** ﴾... إلخ، وما ورد في الحديث كقوله: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**»، وانقسم المسلمون فيها أقسامًا، فقال قوم من السلف: نؤمن بذلك ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعًا أن الله لا يشبه شيئًا من المخلوقات، وذهب جماعة من غلاة الشيعة وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية إلى التشبيه، وقالوا: إنه يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار... إلخ، فحذوا في ذلك حذو اليهود في اختلافهم. ويقول الشهرستاني -في الكلام على المشبهة- إنهم أجروا (الأحاديث الواردة في ذلك) على ما يتعارف في صفات الأجسام، وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها، ونسبوها إلى

(١) الشهرستاني ٥٥، وقد اشتقت كلمة البداء من بدا له.

(٢) انظر حكاية يحيى بن زكريا في التنبيه والإشراف للمسعودي.

النبي عليه السلام، وأكثرها مقتبس من اليهود، فإن التشبيه فيهم طباع حتى قالوا (في الله تعالى): اشتكت عيناه فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمِدت عيناه، وإن العرش ليَئِطَّ من تحته كأطيط الرَّحْل الجديد. وروى المشبهة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لقيني ربي فصافحني وكافحني، ووضع يده على كتفي حتى وجدت بَرْد أنامله... إلخ»[١]، ويقول في موضع آخر: «ولقد كان التشبيه صرفًا خالصًا في اليهود لا في كلهم، بل في القرَّائين منهم؛ إذ وجدوا في التوراة ألفاظًا كثيرة تدل على ذلك»[٢].

وقال الشيعة في الرجعة على نحو ما قال اليهود، قد كان عند اليهود أن النبي «إلياس» صَعِد إلى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون، فقال ابن سَبَأ اليهودي - كما حكى ابن حزم- لما قتل علي: «لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جَورا»، ونمت هذه الفكرة عند الشيعة، فقالوا كذلك في بعض الأئمة الذين اختفوا، ثم قالوا كذلك في المهدي المنتظر.

فترى من هذا أن كثيرًا من المسائل الكلامية وغيرها ما كان منبعها اليهود، وأنها قيلت على مثال ما قالوا، وحق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لتتبعن سنَنَ من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**»، قلنا: يا رسول الله، أليهود والنصارى؟ قال: «**فمن!**».

وكان بعض المتكلمين في العقائد من أصل يهودي كبشر المريسي، وله آراء كثيرة انفرد بها، وكرهه الناس من أجلها حتى كادوا يقتلونه، وكان من أشهر القائلين بخلق القرآن.

---

(١) الشهرستاني ٣٧، ٣٨.

(٢) ص٣١.

وروى ابن قتيبة: «أن هارون الأعور بن موسى -أحد القراء- كان يهوديًّا ثم أسلم، قال الأصمعي: قال هارون: كنت أقرأ ايذام بالعبرانية يعني آدم»[١].

ودخلت كتبَ الأدب نصائحُ يهودية تروى عن أنبيائهم وصلحائهم، كالذي روي أن شِعْياء قال لبني إسرائيل: «إن الدابة تزاداد على كثرة الرياضة لينًا، وقلوبكم لا تزداد على كثرة الموعظة إلا قسوة، إن الجسد إذا صلح كفاه القليل من الطعام، وإن القلب إذا صلح كفاه قليل من الحكمة! كم من سراج أطفأته الريح، وكم من عابد أفسده العجب! يا بني إسرائيل اسمعوا قولي، فإن قائل الحكمة وسامعها شريكان، وأولاهما بها من حققا بعمله»[٢].

وقد ذهب بعض الباحثين -كالأستاذ شوفان- أن بعض قصص ألف ليلة ولية من أصل يهودي.

وعلى كل حال، فقد كانت هناك ثقافة يهودية، بعضها صحيح علميًّا وبعضها غير صحيح، بعضها أخذ عن أهل العلم بالكتاب، وبعضها أخذ عن عوام اليهود، وهذا وذاك نفذ منه إلى المسلمين شيء غير قليل، وتجادل اليهود والمسلمون كل يدعو إلى دينه ويقيم الحجة على صحته، وقد حكت لنا الكتب الكثير من هذا الجدل، من أقدمها ما روي عن أوس من بني قريظة، فقد أسلمت امرأته ودعته أن يُسلم فأبَى وقال:

دَعَتْني إلى الإسلام يومَ لَقِيتها ... فقلتُ لها لا بل تعالي تهَوَّدي
فنحنُ على توراة موسى ودينِه ... ونِعْم لعَمْري الدينُ دينُ محمد
كِلَانا يرى أن الرَّشادة دينُه ... ومن يُهْدَ أبواب المَراشد يَرْشُدِ

(١) المعارف ١٨٠.

(٢) عقد ١/ ٣٥٦، وفيه مواعظ كثيرة من هذا القبيل.

وكالذي حكى الصَّفَدي في «الغيث» من مناقشة بين يهودي ومسلم يقول بالجبر[١]. كل هذه المناقشات كان تضطر كل جانب أن يكون على علم بدين مناظِرِهِ، يستمد منه حجته ويدفع به حجة خصمه؛ فكان ذلك من أسباب انتشار الثقافتين.

النصرانية: كذلك ورد في القرآن الكريم آيات تشير إلى الإنجيل، وتعده كتابًا من كتب الله السماوية: ﴿ **ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ** ﴾، ﴿ **إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ** ﴾، ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ** ﴾... إلخ. وكان موقف المسلمين إزاء الإنجيل واختلافهم في صحته وتحريفه كاختلافهم في التوراة، بل ذهب ابن حزم وابن تيمية وغيرهما في عدم الاعتراف بالإنجيل الذي بين أيدينا إلى أكثر مما ذهبوا إليه في التوراة[٢].

على كل حال، كان للنصرانية ثقافة دينية أهمها الإنجيل، وما أحاط به من شروح، وما زاد عليه من قصص وأخبار. وقد تسرب ذلك كله إلى المسلمين من طرق: أهمها نصارى العرب، وقد كانت النصرانية انتشرت بين بعض قبائلهم، ولا سيما قبيلة تغلب ونجران. وكذلك ومن طريق من أَسْلَمَ من النصارى. ونلمس هذا الأثر في كثير من النواحي، فأول ذلك تفسير القرآن.

ذلك أن القرآن الكريم اشتمل على مواضع وردت في الإنجيل، كقصة عيسى ومريم ومعجزات عيسى عليه السلام، وأسلوب القرآن -كما ذكرنا- أسلوب

---

(١) ج: ٧٣.

(٢) انظر: الفصل في الملل والنحل، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية.

موجز، يقتصر على موضع العظة. فجاء المفسرون ينقلون عن مُسلمة اليهود والنصارى شروحًا لهذه الآيات، إن شئت فاقرأ تفسير سورة مريم في الطبري تجده ينقل شروحًا كثيرة من الإنجيل وتفسيراته، وما وضع حوله، ينقل ذلك عن وهب بن منبه وعن أسباط وعن ابن جريج وعن زكريا بن يحيى بن زائدة. وانظر كذلك تفسيره لقوله تعالى -في سورة آل عمران- في تعداد معجزات عيسى عليه السلام: ﴿ **وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ** ﴾ الآية، فيأتي ابن جريج فيفسر الطير بالخُفاش، ويروي الطبري عن ابن حُمَيد عن سلمة عن ابن إسحاق قصة في كيفية ذلك إلى آخره[١]. وتضخم ذلك بعدُ حتى رأينا القِصص الطويلة عن زكريا ويحيى بن زكريا ومريم وعيسى عليهم السلام والحواريين وحديث المائدة في كتاب قصص الأنبياء للثعلبي[٢] وأمثاله.

كذلك أدخل مُسلمة النصارة أقوالًا من الإنجيل دُسَّت على أنها أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد مثل الأستاذ جولدزيهير لما دخل عن النصرانية في الحديث بحديث: «**ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»، وحديث قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنكم سترون بعدي أَثَرَةً، وأمورًا تنكرونها**» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**أدُّوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم**». فقد أخذ مما ورد في إنجيل متى: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». وكذلك الإمعان في تفضيل الفقراء على الأغنياء، فإن هذا نظر نصراني، وقد ورد في الحديث: «**يدخل فقراء أمتي**

(١) انظر ذلك في الطبري ٣/ ١٩٠.

(٢) توفي الثعلبي سنة ٤٢٧هـ.

الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام»، ومثل حديث: «**كونوا بلهًا كالحمام**»، فقد ورد مثله في إنجيل متى: «هأنا أرسلكم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيات وبُسَطاء كالحمام»، وكذلك حديث أبي داود عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**من اشتكى منكم شيئًا أو اشتكاه أخ له فليقل: ربُّنا الله الذي في السماء تقدَّس اسمُك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبَنا وخطايانا، أنت ربُّ الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ**»، فإنه دعاء نصراني مشهور.

ونحن مع موافقتنا للأستاذ جولدزيهر في أن بعض الأقوال النصرانية دخلت في الحديث، ونسبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا نوافقه على كل ما قال، ولا على نسبة كل الأحاديث التي ذكرها إلى النصرانية، فمثلًا نظرة تبجيل الفقر وتعظيمه ليست نصرانية بحتة، فكل الديانات الإلهية -من يهودية ونصرانية وإسلام- ترى هذا النظر. وطبيعي لها أن تراه، فمن أركان الأديان اتخاذ المقياس العمل الصالح لا المال، وهي تهاجم ما أَلِف الناس من تقديرهم الإنسان بغناه، فالدين يرى أن العمل الصالح له قيمته الذاتية، سواء أتى من غني أو فقير، بل طبيعي أن يكون بعض الأعمال من الفقر أفضل كالأعمال الخيرية المالية؛ إذ تضحية الفقير أعظم، فعَدْلٌ أن يكون ثوابها أعظم، ومحمد رسول الله عَف عن الغنى ولم يشأ أن يكون غنيًّا، وكان في إمكانه أن يكونه. ووردت في القرآن نفسه آيات تمجّد الفقراء الصالحين: ﴿ **لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ** ﴾، ﴿ **لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾، فاتحاد الإسلام والنصرانية في مدح الفقر لا يدل على أخذ الإسلام ذلك من النصرانية، قالوا: إن العربي كان يفضل الغِنَى على الفقر، فقد قال عُرْوَةُ بن الوَرْدِ:

دَعِينِي للغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَاسَ شَرُّهُمُ الفَقِير

ولكن، قد قال عربي غيره وهو قَيْسُ بنُ الحَطِيم:

غَنِيُّ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ غَنِيٌّ وَفَقْرُ النَّفْسِ ما عَمِرَتْ شَقَاءُ

وليس في هذا ولا ذاك دليل على قولهم، فكلامنا في الإسلام، والإسلام حكمه ما بينًّا ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾، ﴿ **مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ** ﴾. ولكن -من غير شك- رويت في النصرانية واليهودية أخبار كثيرة، وقصص عن الفقراء وفضلهم، أدخلها المسلمون في كتبهم، كالذي روي في الإحياء «أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه وقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى، فقال: ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها. فقال له: فنم إذن». ومر موسى عليه السلام برجل نائم على التراب وتحت رأسه لَبِنة، ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة، فقال: يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع! فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زوَيْت عنه الدنيا كلها، وقال المسيح صلى الله عليه وسلم: بشدةٍ يدخل الغني الجنة، وقال موسى عليه السلام: يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير[1] إلخ. ويظهر لنا أن هذه الأخبار وأمثالها لوَّنت حياة المسلمين بلون خاص؛ فقد كان الإسلام في أصله يدعو إلى العمل في الحياة، ولا يحب الرهبانية، ويقدر العمل ممن عمل، غنيًّا كان أو فقيرًا. ثم رأينا الأخبار التي وردت بعدُ من مثل ما حكي في الإحياء تحث على نزعة جديدة؛ هي الهرب من الغنى، وحب العبادة، وإن تَرَك صاحبها العمل في الدنيا. وهي نزعة أشبه ما تكون بالرهبانية لم نعرفها كثيرًا في الأيام الأولى من تاريخ الإسلام.

---

(١) الإحياء ٤/ ١٥٢ وما بعدها.

روي أن رفقة من الأشعريين كانوا في سفَر، فلما قدموا قالوا: ما رأينا يا رسول الله بعدك أفضل من فلان كان يصوم النهار، فإذا نزلنا قام من الليل حتى نرتحل، قال: «**فمن كان يمهن له ويكلفه؟**» قالوا: كلنا، قال: «**كلكم أفضل منه**».

وفي التاريخ عُني مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى، وكان من أولهم في ذلك اليعقوبي، فقد ذكر في تاريخه مقتبسات من الإنجيل. وفي تاريخ الطبري طرَف من تاريخ النصارى، ففيه خبر طائفة من الحواريين وخبر جرجيس وهو -كما يقول الطبري- عبد صالح من أهل فلسطين، أدرك بقايا من حواريِّي عيسى وأطال في قصته. وفيه خبر أصحاب الكهف... إلخ. وكذلك فعل المسعودي. وقد خلطوا فيما كتبوه بين الأخبار الصحيحة والأقاصيص المتداولة على الألسنة، كما فعلوا فيما نقلوا من تاريخ اليهود.

وغير هذا الذي ذكرنا كانت المناقشات الدينية بين المسلمين والنصارى، فقد فتح المسلمون البلاد كالشام والعراق، وكانت مملوءة بالنصارى، فلما هدأت الحرب بالسيف بدأت الخصومة باللسان. كان المسلمون يدعون إلى الإسلام، فيضطرهم ذلك إلى ذكر الحجج والبراهين على صحة هذا الدين. فكان رؤساء النصرانية يقابلون الحجج بحجج، فنشأ من هذا جدل كثير، وكثر ذلك في الدولة الأموية. وكان أكثر ما يكون في الشام؛ إذ دمشق عاصمة الخلافة، وفي الشام كثير من النصارى؛ لأنها كانت في يد الرومان النصارى، ولأن قصور الخلفاء الأمويين في دمشق كان فيها نصارى، يتولون مناصب كبيرة. من ذلك ما حكي لنا عن يحيى الدمشقي، فقد كان نصرانيًّا شديد التمسك بنصرانيته، وعمل هو وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان، والف يحيى كتابًا للنصارى يدفع به دعوة المسلمين، من أمثال ما جاء فيه: «إذا قال لك العربي: ما تقول في المسيح؟ فقل له: إنه كلمة الله، ثم ليسأل

النصراني المسلم: بِمَ سمي المسيح في القرآن، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلى أن يقول: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾، فإن أجاب بذلك فاسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة؟ فإن قال: مخلوقة، فليرد عليه بأن الله إذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح، قال يحيى: فإن قلت ذلك فستُفحم العربي؛ لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين. والمسلمون ردوا على هذا الاعتراض بأن المراد بالكلمة أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة، كما قال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ ﴾ وأن عيسى لما لم يتكون من نطفة الأب، وإنما تكون من نفخة المَلك وُصف بأنه روح، وقد سمى الله جبريل رُوحًا، ولم يقل أحد فيه ما قالوا في عيسى، وقال الله في آدم: ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ كما قال في عيسى، وسمى القرآن روحًا فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾... إلخ. قالوا: وحينئذ لا يَرِد اعتراض يحيى الدمشقي؛ لأنه اعتراض وارد على فهم ظاهر لفظ «كلمة» و«روح». على كل حال، كان هناك جدال بين المسلمين والنصارى، وكان ذلك يضطر كلًّا لقراءة كتب الآخر، يستعين بها على تأليف حججه.

وفي الفِرَق الإسلامية نجد ظلًّا للتعاليم النصرانية، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلًا في خلود العذاب، وذهب آباء الكنيسة اليونانية إلى إنكار أبدية عذاب النار[1]؛ فرأينا جَهْمَ بن صفوان يقول: إن الجنة والنار يفنيان ويَفْنَى أهلها[2].

(١) فون كريمر.

(٢) الفصل لابن حزم ٤/ ٨٣.

ويذهب الأستاذ فون كريمر «إلى أن فرقة المعتزلة نشأت من النصرانية؛ لأن آباء الكنيسة كانوا يتجادلون في حرية الإرادة، وأن الإنسان مجبور أو مختار. وبعبارة أخرى في مسألة القدر، كما كانوا يتجادلون في صفات الله. وقد تسربت هذه العقائد إلى المعتزلة من طريق النصارى -بعد فتح المسلمين للشام- ومن أشهر من احتك بالمسلمين في ذلك العصر الأموي يحيى الدمشقي وثيودور ابوكارا **Abucara**، وقد تكلم يحيى في أن الله مصدر الخير، وقال: إن الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس، فتكلم المعتزلة الأولون في القدر وفي صفات الله أخذًا عن النصارى.

ولكني لا أرى هذا الرأي، بل أرى أن مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم، وكان سبب ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ظاهرها الجبر، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾، ﴿ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ** ﴾، ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ** ﴾، ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** ﴾، وبجانب هذا آيات ظاهرة الاختيار، وأن الإنسان مسئول عن عمله مثل: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ** ﴾، ﴿ **فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾، ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾، وردت أحاديث كثيرة تتعرض للقدر، وكان ذلك قبل فتح المسلمين للشام والعراق، مثل ما روي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه**»، وعن علي قال: كنا في جنازة ببقيع الغَرْقد، فأتانا

رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده مِخْصرة فجعل ينكت بها الأرض، ثم قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتَّكل على كتابنا؟ فقال: «**اعملوا فكلٌّ ميَسَّر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل الشقاء**» ثم قرأ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ** ﴾[1]. وروي أن عليًّا -لما انصرف من صِفِّين- قام إليه شيخ، فقال: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر؟... إلخ، إلى كثير من أمثال ذلك.

فنرى من هذا أن فكرة القضاء والقدَر كانت عند المسلمين قديمًا، ويظهر أنها فكرة تحدث حول كل دين تقريبًا، فقد كانت في اليهودية والنصرانية والمجوسية، فلِمَ كانت لما ظهرت في الإسلام وكان شأنها الديانات الأخرى عُدَّت نصرانية الأصل؟ بل تاريخ المعتزلة يدلنا على أن جدالهم مع مجوس الفرس كان أكثر من جدالهم مع اليهود والنصارى، وأن كثيرًا من أصول مذهبهم وضع للرد على الفرس لا على النصارى، وأكبر ردهم كان على الجهمية أصحاب جهم بن صفوان الخراساني الأصل؛ لهذا نرى أن المعتزلة كانت نشأتهم الأولى إسلامية بحتة، وإن تأثروا بغيرهم من أهل الديانات الأخرى، فمن ناحية أن هذه الديانات كانت تقترح على المعتزلة موضع النزال: فإذا قال المجوسي الذي دخل الإسلام بالتجسيم، أو قال بالجبر نازلهما المعتزلة. ولكنهم يستندون في حججهم على الإسلام والعقل، أما بعد عصرهم الأول، فهذا موضوع آخر سنتناوله عند الكلام في المعتزلة في العصر العباسي إن شاء الله.

***

(١) اقرأ في هذا كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم.

واستمر الجدل بين المسلمين والنصارى في عصرنا العباسي، وقد حكت لنا الكتب منها الشيء الكثير كرسالة الجاحظ «في الرد على النصارى»[١]، فهي تصور لنا ما كان يثيره النصارى واليهود من شبهات، وما كاد يدفع به المسلمون تلك الشبهات، كما تذكر لنا طرفًا من أخبار اليهود والنصارى، والسبب الذي من أجله كانت العداوة بين المسلمين والنصارى أقل من العداوة بين المسلمين واليهود... إلخ. ونُقل إلينا أن عبد الله بن إسماعيل الهاشمي كتب رسالة إلى عبد المسيح إسحاق الكندي يدعوه بها إلى الإسلام، فرد عليه عبد المسيح يدعوه إلى النصرانية، وكان ذلك في عهد المأمون[٢].

وحكى الجاحظ في الحيوان جدالًا كان بينه وبين النصارى في القرَابين والذبائح[٣]، إلى كثير من أمثال ذلك. وكل هذا الجدل يدل على معرفة اليهود والنصارى لكتب المسلمين يأخذون منها حججهم، ومعرفة المسلمين لكتب اليهود والنصارى كذلك.

وفي الأدب تسرب بعض ما للنصرانية إلى الأدب العربي من وجوه عدة:

---

(١) وردت هذه الرسالة باختصار في رسائل الجاحظ على هامش الكامل، ووردت بأطول من ذلك في مجموعة ثلاث رسائل للجاحظ، وهي التي نشرها يوشع فنكل.

(٢) ورد اسم الرسالة والإشارة إليها في كتاب الآثار الباقية للبيروني، فاستشهد بكلام المسيح على ذبح الصابئة للآدميين قربانًا للقمر، وقال: إن هذه الرسالة كتبت جوابًا على عبد الله بن إسماعيل الهاشمي. وقد طبعت هذه الرسالة جميعة ترقية المعارف المسيحية، ولكنا نشك كل الشك في أن هذه الرسالة كلها بعينها هي التي رآها البيروني لأسباب ليس هنا موضع ذكرها.

(٣) الحيوان ٤/ ١٣٨ وما بعدها.

١- أن بعض الشعراء كانوا نصارى، فأدخلوا في شعرهم العربي شيئًا من النصرانية، وكان أوضح مثل لذلك في العصر الأموي «الأخطل» فقد ورد في شعره أثر من النصرانية مثل قوله:

ولقد حلفتُ بربِّ موسى جاهِدًا والبيت ذي الحُرُماتِ والأسْتَارِ
وبكل مُهْتَبِلٍ عليه مُسُوحُه دُونَ السماءِ مُسَبِّحٍ جأر
لأحَبِّرَنْ لابن الخليفة مِدْحة وَلأقْذفَنَّ بها إلى الأمْصَارِ

ويقول: «والصليب والقربان لأتخلصنَّ إلى كليب خاصة -دون مضر- ويَلْبَسُهم خزيُه ويَلْزَمهم عارُه»[1]. وروى ابن الأثير أن الأخطل لما قال:

لما رأونا والصليبَ طالعًا ومار سرجيسَ وسُمًا ناقعًا
والخيلَ لا تحمِلا إلا دَارِعًا وأبصروا راياتِنا لوامعا

... إلخ.

قال جرير:

أفبالصليب ومارِ سرجسَ تتَّقي شَهْبَاءَ ذَات مَنَاكِبٍ جُمْهورا؟!

وقال أيضًا:

يستنصرون بمارِ جرجسَ وابنِه بعد الصليب وما لهم من ناصر!

ولكن أثر النصرانية في شعره قليل، كما لاحظ الأستاذ «لامانس»، بل هو متأثر في أيمانه بالإسلام أكثر من تأثيره بالنصرانية، كقوله:

إني حَلَفْتُ بربِّ الرّاقِصَاتِ وَمَا أضحى بمكة من حُجْب وأسْتَارِ
وبالهَدِيِّ إذا اهَمَّرت مَذَارِعُها في يومِ نُسْكٍ وتَشْرِيقٍ وتَنْحَارِ

(١) أغاني ٧/ ١٧٣.

وما بزمزمَ من شُمْط مُحَلِّقَة ... وما بيثْرِبَ من عُونٍ وأبْكَارِ[١]

وقوله:

وقد حَلفتُ يمينًا غيرَ كاذبةٍ ... بالله رب ستور البيت ذي الحُجُب
وكل مُوفٍ بنَذْر كان يَحْمِلُه ... مُضَرَّجٍ بدماء البدْن مُخْتَضِبِ

كذلك هو في حياته مضطرب بين عادات من حوله من النصارى والمسلمين، فهو يشرب الخمر ويعلق الصليب، وهو يطلق امرأته ويتزوج أخرى بل ويَتَسَرَّى!

وفي العصر العباسي لم يشتهر كثير من النصارى بالشعر العربي، وعرف منهم أبو قابوس، قال في العُمْدة: «كان أبو قابوس الشاعر رجلًا نصرانيًّا من أهل الحيرة»، وكان منقطعًا إلى البرامكة يمدحهم ويمنحونه، روي من شعره قليل، من ذلك انه استمنح جعفر بن يحيى البرمكي ثوبًا يلبسه يوم العيد في الكنيسة، فقال في قصيدة:

أبا الفضل لو أبصرتنا يومَ عيدِنا ... رأيتَ مباهاةً لنا في الكنائسِ
فلا بُدَّ لي من جُبةٍ من جِبَابكم ... طَيْلسان من خِيار الطَّيالِس

ولكن -على العموم- شعراؤهم في عصرنا قليلون، وليس لهم كبير أثر في الشعر العربي، ولم يكن لهم مثل الأخطل، أو ما يقرب منه[٢].

٢- كان أكبر من ذلك أثرًا ما نقل -من المواعظ- عن الرهبان في الأديار، وما نقل عن الكتب النصرانية، كالذي حكى ابن قتيبة «قال بعضهم: أتيت الشام فمررت بدير حرملة وبه راهب كأنه عينيه عِدْلَا مَزَادٍ، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: يا

(١) رقص البعير: إذا أسرع في سيره، والهدي: النعم تهدى إلى الحرم، والأشمط: الذي شعر رأسه أبيض وأسود، والعون: جمع عوان وهي المرأة النصف والتي كان لها زوج.
(٢) انظر مصداق ذلك «كتاب شعراء النصرانية بعد الإسلام» للأب لويس شيخو.

مسلمُ، أبكي على ما فرَّطتُ فيه من عمري، وعلى يوم مضى من أجَلي لم يحسُن فيه عملي! قال: ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا: أسلم وغزا فقتل في بلاد الروم»[١]. ويقول ابن قتيبة أيضًا قرأت في الإنجيل: «لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدها السوس والدود، وحيث يَنْقب السرَّاقُ، ولكن اجعلوا كنوزكم في السماء، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم... إلخ»[٢]. وفي العقد الفريد «قال عيسى عليه السلام للحواريين: لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية»[٣]، «ولقى رجل راهبًا فقال: يا راهب، صف لنا الدنيا، فقال: الدنيا تخلق الأبدان وتجدد الآمال وتباعد الأمْنِيَّة وتقرِّب المَنيَّة»[٤] إلى كثير من أمثال ذلك.

ومن غريب الأمر أن هذه الأديار كانت منبعًا لشيئين متناقضين أشد التناقض: كانت منبعًا لزهد وورع وبعد عن الدنيا وشئونها، ومحطًّا لبعض زهاد المسلمين، يروون عن الرهبان أقوالهم في الهرب من اللذات كالذي روينا.

وكانت كذلك مناحَ الخليعين من الشعراء والأدباء يخرجون إليها، ويتشببون بفتيانها وفتياتها، ويقولون في ذلك القول الخليع والشعر الجميل؛ ذلك أن الأديار كانت غالبًا في أجمل المواضع، وأحسنها هواء، وأجملها منظرًا، تحيط بها أنواع البساتين، وتجمل فيها الأزهار والرياحين، قال البُحْتريُّ:

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ٢٩٧.
(٢) عيون ٢/ ٢٧٠.
(٣) العقد ١/ ٣٥٦.
(٤) عقد ١/ ٢٧١.

ما تُقضَّى لُباته عند لُبْنَى ... والمعنَّى بالغانياتِ مُعَنَّى
نزلوا رَبْوَةَ العِراقِ ارْتِيادًا ... أيُّ أرضٍ أشفُّ دارًا وأسْنَى؟
بين دَيْر العاقول مُرْتَبَعٌ أشـ ... ـرف مُحْتَلَّهُ إلى دَيْر قُنَّى
حيث باتَ الزَّيتونُ من فوقه النخـ ... ـلُ عليه وُرْقُ الحمام تَغَنَّى

وشاع عند الشعراء ما فيها من خمر معتق، وشراب جيد مصفًّى.

إنَّ عجزًا كما نكون وغَبْنَا ... أن نُرَى صاحِيَيْنِ في دَيْر قُنَّى
حَبَّذا رَوْضهُ المُدَيَّجُ ليلا ... وهَواهُ ذَاك المُمَسَّكُ رُدْنَا
قد جَرَى السلسبيل بالمِسك فيها ... فَحَوته الدِّنَان دَنًّا فدَنَّا

ويظهر أن الخمَّارين استغلوا شهرة الأديار بالشراب، فأنشئوا حولها الحانات، قال ابن فضل الله العُمَري: «وكانت حول دير العذارى حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات»[(١)]. وكانت تقام لبعض الأديار أعياد سنوية، قال الخالدي في دير الكَلَب: «وله عيد في وقت من السنة يخرج إليه خَلْق من النصارى نساء ورجال للإقامة عنده، وخلق من المسلمين للنظر إليه والنزهة فيه، ويجتمع إليه أهل الرفَثِ والمُجَّان، وتُسمع به الأغاني وأنواع الملاهي، وتذبح به الذبائح وتُشْرب الخمور»[(٢)].

اغتنم المُجَّان من الشعراء هذا كله، فأنشئوا حول الأديار أدبًا غزيرًا، وشعرًا كثيرًا، هو من الناحية الفنية بديع ممتع، مثل قول ابن المعتز:

يا ليالِيَّ بالمَطِيرَةِ والكَرْ ... خ ودَيْر السُّوسِيِّ بالله عودِي
كنتِ عندي أنموذجاتٍ من الجنـ ... ـة لكنها بغير خلودِ!
أشربُ الرَّاح وهي تشربُ عقلي ... وعلى ذاك كان قتلُ الوَليد

(١) مسالك الأبصار ١/ ٢٥٨.
(٢) ٢٥٤.

وقول آخر:

مـا تـرى الـدَّيْرَ، مـا تـرى أسـفل الديــ ـــر وقـد صـار وِرْدةً كالـدِّهان؟
لـو رآه الـنعمان شَـقَّ عليـه مـا يـرى مـن شـقائقِ الـنُّعمان

وآخر:

فتنَتنـا صـورةٌ في بِيعَـةٍ فـتَنَ اللهُ الـذي صـوَّرها
زادهـا النـاقشُ في تحـسينها فَـضْلَ حُـسْنٍ إنـه نـضَّرَها
وجهها لا شـك عنـدي فتنـةٌ وكـذا هـي عنـدَ مـن أبـصَرَها
أنـا للقَـسِّ عليهـا حاسِـدٌ ليـت غـيري عَبَثًـا كـسَّرها

وسرت هذه العادة في كل الأقطار، فتجد شعراء العراق والشام ومصر يتشببون بالأديار ومن فيها وما فيها، وتقرأ كتاب الديارات للشابشتي ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، فتعجب من كثرة ما قيل من الشعر فيها وسكانها، وتراهم قد سلكوا في ذلك كل مسلك، وتفننوا كل فن، وهم بين مستهتر ومحتشم وطريف مؤدب وخليع ماجن. وهكذا كانت الأديار مصدرًا لنَغْمتين كان الناس يسمعونهما كثيرًا في ذلك العصر: نغمة حزينة زاهدة، تدعو إلى الفرار من الحياة وارتقاب الموت. ونغمة مرحة لاهية، تدعو إلى احتساء الكأس إلى آخر قطرة من قطراته، كلٌّ يوقِع على الوتر الذي يهواه، وكلٌّ يغني على لَيْلاه.

***

كذلك نفذ إلى المسلمين بعض عادات اليهود والنصارى الدينية، فقد اتخذ بعض المسلمين أعياد النصارى عيدًا؛ فيوم السَّعانين(١) عرف في العصر العباسي وما بعده،

(١) السعانين: عيد النصارى قبل الفصح بأسبوع.

وقالت فيه الشعراء شعرًا كثيرًا، من ذلك ما يقوله عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع:

يـــا شـــادِنًا رَامَ إذْ مَـــرَّ في الـــسَّعانين قـــتلي
يقـــولُ لي كيـــف أصبحـــتَ، كيـــف يُـــصْبِحُ مِـــثْلي؟!

ويقول:

يـــا ليلـــة لـــيس لهـــا صُـــبح وموعـــدًا لـــيس لـــه نُجْـــح
مـــن شـــادِنٍ مـــرَّ عـــلى وعْـــده الـــ ـــميلادُ والـــسَّلَّاقُ والـــذَّبْحُ[1]
وفي الـــسَّعانين لـــو أني بـــه وكـــان أقـــصى الموعـــد الفـــصْح
فـــاللهَ أسْـــتَعْدي عـــلى ظـــالمٍ لم يغـــنِ عنـــه الجـــودُ والـــشحُّ

ويقول:

إنَّ في القلـــب الظَّبـــي كُلُـــومُ فـــدع اللـــوْم فـــإن اللـــوم لـــوم
حَبَّـــذا يـــوم الـــسَّعانين ومـــا نِلْـــتُ فيـــه مـــن نعـــيم لـــو يـــدومُ!
إن تكـــن أعْظَمْـــتَ أن هِمْـــتُ بـــه فالـــذي تركـــبُ مـــن عَـــذْلي عظـــيمُ
لم أكـــن أولَ مـــن ســـنَّ الهـــوى فَـــدَعِ اللـــوْم فـــذا داءٌ قـــديمُ[2]

ويقول:

إن كنـــتَ ذا طـــبٍّ فـــداويني ولا تلـــم فـــاللومُ يغرينـــي
يـــا نظـــرة أبقـــت جـــوى قـــاتلا مـــن شـــادن يـــوم الـــسَّعانين

... إلخ.

(١) الميلاد والسلاق والذبح: أعياد للنصارى.
(٢) انظر كذلك ضحى الإسلام ص٨٨.

ويرى ابن تيمية أن اتخاذ المسلمين القبور مساجد كان تقليدًا لليهود والنصارى، وروى في ذلك الأحاديث الكثيرة مثل: «**إن من كان قلبكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»، ويقول الشافعي: «وأكره أن يعظَّم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدًا مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس»[(١)]. وعدَّد كثيرًا من البدع التي أدخلت على زيارة القبور: من أبنية الأضرحة وإيقاد المصابيح والتوجه بالدعاء نحو القبور، وختم ذلك بقوله: «وكل هذه الأشياء من البدع التي تضارع دين النصارى»[(٢)].

وعلى الجملة، فنظرة إلى هذا كله ترينا أنه قد تسرَّب إلى المسلمين -في العصر العباسي- شيء غير قليل من اليهودية والنصرانية في التفسير والحديث والمذاهب الدينية والعادات والتقاليد، وأنهما كانتا عنصرين من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر.

***

الإسلام: ليس من غرضنا -هنا- أن نبين تعاليم الإسلام وما دعا إليه، وما أتى به من أصول وفروع؛ فموضع ذلك قد مر في فجر الإسلام، وإنما غرضنا أن نبين تاريخ الإسلام في العصر العباسي، فهو بموضوعنا أليق.

ليس من شك أن العباسيين لم يضيفوا كثيرًا من البلدان والأقطار إلى رقعة المملكة الإسلامية، فنحن إذا قارناها في ذلك بالدولة الأموية رأينا العهد الأموي أكثر فتحًا، وأعظم نشرًا للإسلام؛ ففيه فتح السِّند وبُخارى وسَمَرْقَنْد إلى كاشْغَر في

(١) ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم ص١٦٠ وما بعدها.

(٢) ص١٧٥، وقد عدد في هذا الكتاب أشياء كثيرة من العادات والتقاليد التي أخذت عن أهل الكتاب والمجوس فارجع إليه.

حدود الصين، وفتحت الأَنْدَلُس وكان الفاتحون -كما رأينا- فيهم الدّعاة إلى الدين، وفيهم العلماء، فلم يكن الفتح فتحًا سياسيًّا حربيًّا فقط، بل كان أيضًا نشرًا للدعوة الإسلامية، وتعليمًا لأصول الإسلام وفروعه، ووضعًا للنظم الإسلامية، وتعليمًا للغة العربية وما إليها. وتبع ذلك دخول عدد كبير من أهل البلاد المفتوحة في الإسلام[1]، وكان أكبر هَمِّ العباسيين أن يُبقوا على التراث الذي ورثوه عن الأمويين، ويحافظوا على وَحْدَته، فنجحوا بعض النجاح أولًا وفشلوا أخيرًا، وعلى العموم لم يزيدوا شيئًا يذكر من الأقطار الأجنبية على المملكة الإسلامية.

ولكن -مع هذا- كان للعباسيين أثر كبير في دخول عدد عديد في الإسلام؛ من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، مما فتح في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين.

وفي نظري أن العباسيين من حيث هم أصحاب السلطان وأولياء الأمر والقابضون على زمام الدولة؛ بذلوا في هذا الباب جهدًا أكثر من الخلفاء الأمويين - إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز- فقد كان نشر الدعوة في العهد الأموي عمل قواد وعلماء وأفراد متدينين أكثر منه عمل حكومة، ولم يكن للخلفاء الأمويين -غالبًا- مظهر ديني من هذا القبيل. أما الخلفاء العباسيون فقد صبغوا صبغة دينية ظاهرة، ونظر إليهم كأنهم حماة الإسلام. وكان أبو جعفر المنصور أكبر من أحاط الخلافة بالإجلال الديني، وقوَّى من حرمة البيت العباسي، لا من ناحية القوة المادية - فحسب- بل من ناحية القوة الروحية كذلك. وكان من أثر هذا أن الخلفاء العباسيين لما ضعف نفوذهم المادي، وفقدوا السلطان على الرعية، ولم يكن شيء من القوة في

(١) روى بعض المؤرخين أن العراق كان يدفع من الجزية في عهد عمر بن الخطاب نحو مائة مليون درهم أو ١٢٠ مليونًا، فنقص في عهد عبد الملك ابن مروان إلى نحو ٥٠ مليونًا من كثرة دخول الذميين في الإسلام.

أيديهم ظلت هذه السلطة الروحية فيهم، يستغلها القواد والأمراء والوزراء وأصحاب السلطان المادي، فيستجلبون رضى العامة بإعلان رضى الخليفة عنهم وإمداده الروحي لهم. ومن مظاهر ذلك في هذا العهد أن رأينا البيعة للخلفاء تُحاط بأنواع من المراسم والشعائر لم تكن معروفة، وتؤكد البيعة في الحرم، ويعلى شأن إجماع أولي الحل والعقد، ونحو ذلك.

صبغة الخلفاء العباسيين بهذه الصبغة جعلتهم يشرفون على الدين من نواحٍ مختلفة، ويتدخلون في المسائل الدينية بأكثر مما كان الأمويون؛ من ذلك أنا نرى المهدي -كما سبق- يتعقب الزنادقة، ويعيِّن من يلي أمرهم، ويعاقب من ظهر منهم، ويحث العلماء على وضع الكتب في الرد عليهم، ويسير مَنْ بعده من الخلفاء سيرته، وذلك ما لم نعهده من قَبْل المهدي. ونرى الرشيد يتصل بالقضاة والعلماء اتصالًا لم نعرفه في العهد الأموي، فلا نجد -مثلًا- قاضيًا كان من الخليفة الأموي من القرب والاتصال ما كان أبو يوسف من الرشيد.

ويصور أبو يوسف نظر الناس إلى الخليفة في عصره، فيقول للرشيد في أول كتابه الخراج: «وإن الله -بمنه ورحمته وعفوه- جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه، وجعل لهم نورًا يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم». وقعد إبراهيم بن السِّنْدِي أمام المأمون على ركبتيه، فقال له المأمون: تمكن في قعودك، فقال إبراهيم: والله لا أضع قدر الخلافة، ولا أجلس إلا جلوس العبد بين يدي مولاه![1]

ويقول البحتري للمتوكل ويذكر خروجه يوم عيد الفطر:

أظهرتَ عِزَّ الملك فيه بِجَحْفَلٍ لَجِبٍ يحاطُ الدِّينُ فيه وينْصَرُ

(١) طيفور ٦٨.

خِلْنـا الجبـالَ تـسير فيـه وقـد غـدت ... عُـدَدٌ يـسير بهـا العَدِيـدُ الأكثـرُ
والخيـلُ تَـصْهل والفـوارس تَـدَّعي ... والبـيضُ تلمـعُ والأسـنة تُزْهِـرُ
والأرضُ خاشـعة تَمِيـلُ بثقلهـا ... والجـوُّ مُعْتكِـرُ الجوانـبِ أَغْـبَرُ
حتى طَلَعْتَ بضَوْء وجهكَ فانجَلَتْ ... تلـك الـدُّجى وانجـاب ذاك العثـيَرُ
وافـتنَّ فيـكَ النـاظرون فإصْـبَعٌ ... يُـومَى إليـك بهـا وعـينٌ تتنظـرُ
يجـدون رؤيتـك التـي فـازوا بهـا ... مـن أنعُـمِ الله التـي لا تُكْفَـرُ
ذكـروا بطلعتِـك النبـيَّ فهلَّلـوا ... لَمَّـا طَلَعْـتَ مـن الـصَّفوفِ وكـبَّرُوا
حتـى انتهيـتَ إلى المـصَلَّى لَابِـسًا ... نـورَ الهـدَى يبـدو عليـك ويظهـرُ
ومـشيت مِـشية خاشـعٍ متواضـع ... لله لا يزهـو ولا يتكـبَّرُ
فلـو أن مـشتاقًا تكلَّـف فـوق مـا ... في وُسْـعِهِ لمـشى إليـك المِنْـبَرُ
أبـديتَ مـن فَـصْلِ الخِطَـاب بحكمـة ... تنْبـي عـن الحـقِّ المبـينِ وتخْـبِرُ
ووقفـت في بُـرْدِ النبـيِّ مـذَكِّرًا ... بـالله تنـذر تـارةً وتبـشَرُ
حتـى لقـد عَلِـمَ الجهـولُ وأخلـصتْ ... نفْـسُ المُـرَوِّي واهتـدى المتحـيِّرُ
صـلَوْا وراءكَ آخـذينَ بعـصمةٍ ... مـن ربهـم وبذِمَّـةٍ لا تُخْفَـرُ

وكان من أثر ذلك نشاط الخلفاء في نشر الدعوة إلى الإسلام، مع ما كان من حمية الناس وحماستهم للدعوة؛ ولذلك رأينا كثيرًا من أهل الملل الأخرى يدخلون في الإسلام أفواجًا، ولم يكن السبب لدخولهم واحدًا، فهناك -من غير شك- أسباب لذلك متعددة.

منهم من كان يسلم اقتناعًا بالإسلام، وإيمانًا ببساطة عقيدته ويُسرها وسهولة فهمها. فيكفي أن يقول الرجل: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ليُعد مسلمًا من غير مراسم ولا طقوس، وفي أي مكان وعلى يد أي إنسان.

obeikandi.com

وساعد على ذلك ما لاحظه الأستاذ أرنولد «من أن المذاهب النصرانية من يعاقبة ونساطرة وملكانية وغيرها، كان بينها من العداء واضطهاد بعضها بعضًا أشد مما كان بين أهل دين ودين آخر، فليس عجيبًا أن يهرب آلاف من هذا الاضطهاد والعذاب، ويلجئوا إلى عقيدة سهلة هي عقيدة الوحدانية»[١].

وقد عمل -بجد- في نشر الدعوة في ذلك العصر المتكلمون من المسلمين وعلى رأسهم المعتزلة؛ ذلك أن هؤلاء المتكلمين هم الذين كانوا يبحثون في الإسلام، ويعللون آراءه وتعاليمه من طريق العقل، على حين أن المحدِّثين والمفسرين وأمثالهم كانوا يخدمون الإسلام من طريق النقل. فاضطر المتكلمون تمشيًا مع العقل أن يتسلحوا بكل ما يعنيهم في سبيلهم، فاستعانوا بالمنطق اليوناني يصوغون في قوالبه قضاياهم، وعرفوا آداب الجدل والمناظرة وتقيدوا بقوانينها، وقرءوا بعض كتب الفلسفة اليونانية. فيذكر المرتضي «أن النَّظَّام كان قد نظر في شيء من كتب الفلاسفة، فلما ورَدَ البصرة كان يرى أنه قد أورد من لطيف الكلام ما لم يبسق علمه إلى أبي الهذيل العلاف. قال: فناظرت أبا الهذيل في ذلك، فخيِّل إليَّ أنه لم يكن متشاغلًا قط إلا به لتصرفه فيه وحذقه في المناظرة فيه»[٢]. ويقول في موضع آخر: «إن جعفر بن يحيى البرمكي ذكر أرسطاليس، فقال النظام: قد نقضت عليه كتابه، فقال جعفر: كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه؟ فقال: أيما أحب إليك أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله؟ ثم اندفع يذكر شيئًا فشيئًا وينقضه عليه فتعجب منه جعفر»[٣].

(١) انظر Preaching of Islam لأرنولد ص٦١ وما بعدها.

(٢) المنية والأمل ص٢٦.

(٣) ص٢٩.

ثم نظروا في كتب الديانات الأخرى وتبحروا فيها، فيقول المرتضى أيضًا: «إن النظام كان يحفظ القرآن والإنجيل وتفسيرها»[١]. ووصف رجلٌ واصِلَ بن عطاء فقال: «ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ومارِقة الخوارج، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة، وسائر المخالفين والرد عليهم منه»[٢].

وبعد أن أعد المتكلمون -وخاصة المعتزلة- أنفسهم هذا الإعداد نزلوا في الميدان وقاموا بعملين؛ أحدهما: أنهم نازلوا الطوائف الأخرى الإسلامية المخالفة لهم يجادلونهم ويردون عليهم، ويدعونهم إلى عقائدهم الخاصة. فالمعتزلة تحارب المجبرة، والمعتزلة تنازل الرافضة. تجادلا جميعًا في الجَبْر والاختيار، وفي صفات الله، وفي التجسيم، وفي الثواب والعقاب. وروت لنا الكتب الشيء الكثير من هذا الجدال، وليس هذا الموضع محله. وثانيهما: منازلتهم لأهل الديانات الأخرى من مجوس ويهود ونصارى ودعوتهم إلى الإسلام. وكانت هذه الحركة عنيفة في عصرنا، على أشد ما يكون من العنف، مانوية يدعون إلى دينهم ويظهرون محاسنه، ويهاجمون الإسلام ويأتون بالحجج، ويهود ونصارى كذلك. ولم يكن المحدِّثون وأمثالهم يستطيعون أن يقوموا بمناهضتهم، إنما الذين استطاعوا ذلك وانتدبوا أنفسهم للقيام به هم المتكلمون، حكى المرتضى «أن ملك السند طلب إلى الرشيد أن يبعث إليه من يناظره في الدين، فبعث الرشيد إليه قاضيًا لا متكلمًا -لأن الرشيد كان قد منع الجدال في الدين وحبس علماء الكلام- فانتدب ملك السند سُمَنِيًّا ليجادل القاضي، فسأل السمنيُّ القاضي: أخبرني عن معبودك هل هو القادر؟ قال: نعم، قال: أفهو قادر على أن يخلق مثله؟ فقال القاضي: هذه المسألة من علم الكلام، وهو بدعة وأصحابنا ينكرونه. فقال السمني للملك: قد كنت أعلمتك دينهم. وكتب ملك

(١) ص٢٩.
(٢) ص١٨.

السند بذلك إلى الرشيد فقامت قيامته وضاق صدره، وقال: أليس لهذا الدين من يناضل عنه؟! قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، هم الذين نهيتهم عن الجدال في الدين، وجماعة منهم في الحبس. فقال: أحضروهم، فلما حضروا قال: ما تقولون في هذه المسألة؟ فقال صبي من بينهم: هذا السؤال محال؛ لأن المخلوق لا يكون إلا محدثًا، والمحدث لا يكون مثل القديم، فقد استحال أن يقال: يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر، كما استحال أن يقال: يقدر أن يكون عاجزًا أو جاهلًا، فقال الرشيد: وجِّهوا إليه بهذا الصبي، فقالوا: إنه لا يؤمَن أن يسألوه على غير هذا، فقال: اختاروا غيره، فاختاروا معمر بن عباد السلمي (من شيوخ المعتزلة) فسُمَّ في الطريق»[(١)].

عرف المعتزلة المانوية واليهودية والنصرانية معرفة واسعة، كما عرف علماء هؤلاء الطوائف الإسلام. وبذل كل فريق الجهد في الدعوة إلى دينه والرد على مخالفيه، فأسلم على يدهم كثيرون: يقول المرتضى: إنه أسلم على يد أبي الهذيل العلاف -شيخ المعتزلة- أكثر من ثلاثة آلاف رجل[(٢)]. ويقول ابن خلكان: «إن لأبي الهذيل كتابًا يعرف بميلاس، وكان ميلاس رجلًا مجوسيًّا فأسلم، وكان سبب إسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل المذكور، وجماعة من الثنوية فقطعهم[(٣)] أبو الهذيل، فأسلم ميلاس عند ذلك»[(٤)]. وحكى الجاحظ: «أن قسًّا نصرانيًّا راهن على أن الصليب الذي في عنقه من خشب لا يحترق؛ لأنه من العود الذي كان المسيح عليه السلام صلب عليه، وكاد يفتن بذلك ناسًا من غير أهل النظر حتى فطن له بعض

(١) المنية والأمل ص٣١.

(٢) ص٢٦.

(٣) يعني: ألزمهم الحجة وقد استعملت كلمة قطعهم في هذا المعنى كثيرًا في ذلك العصر.

(٤) ابن خلكان ١/ ٦٨٥.

المتكلمين، فأتاهم بقطعة عود تكون بكرمان، فكانت أبقى على النار من صليبه»[١].
وحكى المرتضى في أماليه «أن أبا الهذيل في حداثته بلغه أن رجلًا يهوديًّا قدم البصرة، وقطع جماعة من متكلميها، فقال لعمه: يا عم، امضِ بي إلى هذا اليهودي حتى أكلمه، وألح عليه في ذلك، فذهب إليه وما زال به حتى أفحمه»[٢]. ويذكر ابن خلكان أن واصلًا ألف فيما ألف كتابًا في الدعوة، والظاهر أنه في الدعوة إلى الإسلام، أو الدعوة إلى مذهب الاعتزال. وقد رأينا قبل أن الجاحظ يؤلف رسالة في النصارى، يذكر حججهم ويرد عليها. ويروي ابن النديم: أن المأمون أرسل إلى يزدانبخت -أحد رؤساء المانوية- فأحضره من الري -بعد أن أمنه- فقطعه المتكلمون. فقال له المأمون: أسلم يا يزدانبخت فلولا ما أعطيناه إياك من الأمان لكان لنا ولك شأن! فقال له يزدانبخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم. فقال المأمون: أجل، ووكل به حفظة خوفًا عليه من الغوغاء، وكان فصيحًا لسنًا»[٣].

وبجانب هؤلاء العقليين الذين يدعون إلى الإسلام -من طريق العقل والحجج المنطقية- كان من يدعو إلى الإسلام من طريق السيرة الطاهرة، والخلق النبيل، والحياة الصالحة، فكان داعيًا من طريق المثل. ومن ذلك ما حكى ابن خلكان «قيل: إنه أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفًا من النصارى واليهود والمجوس»[٤]، أو من طريق الوعظ والتصوف، فأبو القاسم الجنيد يقف على حلقته في المسجد غلام

(١) الحيوان ٥/ ٩٥.
(٢) انظر الحكاية بطولها في أمالي المرتضى ١/ ١٢٤.
(٣) الفهرست ٣٣٨.
(٤) ابن خلكان ١/ ٢٣.

نصراني ويسلم[١]. وبعد هذا العصر كان أبو الفرج بن الجوزي واعظًا مؤثرًا، وقد أسلم على يده كثيرون.

وكان الخلفاء العباسيون من أنشط الخلفاء في الدعوة إلى الإسلام للصبغة الدينية التي شرحناها قبل.

وكان المأمون من أحرصهم على ذلك، فحوله المتكلمون، يدعون إلى الإسلام، وهو بجنده ينشر دعوته، روى البلاذري قال: «لما استخلف المأمون أغزى السُّعْدَ وأُشْرُوسنَه، ومن انتقص عليه من أهل فَرْغانة -الجُنْدَ وألح عليهم بالحروب وبالغارات أيام مقامه بخراسان وبعد ذلك، وكان مع تسريته الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيهما». وقال: «وكان المأمون -رحمه الله- يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر، ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان... ويستميلهم بالرغبة، فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنَى صِلاتهم وأرزاقهم، ثم استُخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك، حتى صار جل شهوده عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والأشروسنه وأهل الشاش وغيرهم، وحضر ملوكهم بابه وغلب الإسلام على من هناك»[٢].

وكان رجل من خراسان نصرانيًّا فأسلم فارتد؛ فأمر المأمون بحمله إلى بغداد، فسأله: ما الذي أوحشك من الإسلام؟ فقال المرتد: أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف في دينكم! قال المأمون: فإن لنا اختلافين: أحدهما كالاختلاف في الأذان وتكبير الجنائز والاختلافات في التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه

(١) ابن خلكان ١/ ١٦٥.

(٢) فتوح البلدان ٤٣٦ و٤٣٧ طبعة مصر.

القراءات. واختلاف وجوه الفتيا، وما إلى ذلك، وليس هذا باختلاف، إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة، فمن أذَّن مَثْنى وأقام فرادَى، لم يؤثَّم من أذن مثنى وأقام مثنى، لا يتعايرون ولا يتعايبون، أنت ترى ذلك عِيَانًا، وتشهد عليه بيانًا. والاختلاف الأخر كنحو الاختلاف في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع إجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان الذي أوحشك هذا، حتى أنكرت كتابنا؛ فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع ما في التوراة والإنجيل متفقًا على تأويله كالاتفاق على تنزيله، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات... ولو شاء الله أن ينَزِّل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج إلى تفسير لفعلْ، ولكنا لم نرَ شيئًا -من الدين والدنيا- دُفع إلينا على الكفاية. ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة، وذهبت المسابقة والمنافسة. فرجع الرجل إلى الإسلام فخر المأمون ساجدًا لله، ثم قال لأصحابه: لا تبَرُّوه في يومه ريثما يعتق إسلامه كي لا يقول عدوه: إنه يُسلم رَغبة، ولا تنسَوْا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه[١].

على كل حال، نشط الخلفاء العباسيون الأولون في الدعوة إلى الإسلام، ولكن قلَّ أن كان منهم إكراه على الدخول في الإسلام، كما رأينا في موقف المأمون نحو يزدانبخت، فقد اعترف بأن المأمون لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، وأقرَّه المأمون على قوله، يقول الأستاذ «فِنْسِنْكْ»: «ومع أن نصارى الشرق كان يقل عددهم باعتناقهم الإسلام، فقلَّ منهم من أسلم كَرْهًا»[٢].

(١) طيفور ص٦٠، ووردت الحكاية في العقد الفريد مع خلاف في بعض ألفاظها.

(٢) Muslim Creed ص٢٨.

نعم، صدر من بعض الخلفاء في ذلك العصر من اشتد في معاملة المسيحيين، كالذي رواه الطبري في حوادث سنة ١٩١ فقد قال: «إن الرشيد أمر بهدم الكنائس بالثغور، وكتب إلى السِّندي بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذمة -بمدينة السلام- بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم»[١]. ولكن هذا وأمثاله كان أثرًا من آثار سوء العلاقات السياسية بين الدولة الإسلامية والمملكة البيزنطية، لا أثرًا للتعاليم الدينية، وإلا فلم كان أمر الرشيد مختصًّا بأهل الذ مة في بغداد دون سائر الاقطار الإسلامية؟ وظلت الأوامر بمخالفة الذميين في لباسهم والتشديد عليهم تنمو مع نمو سوء العلاقات السياسية حتى بلغت أشدها في أيام الحروب الصليبية؛ صدى لما كان من معاملة الروم للمسلمين.

كذلك لا ننكر أن بعض من أسلم إنما أسلم لنيل الجاه والمنصب، كالذي كان من كاووس ملك أشروسنه، فإنه لما غُلِبَ في الحرب أظهر الإسلام، وكلك ابنه حيدر المعروف بالأفشين، والذي مات في سجن المعتصم لزندقته كما أبنا من قبل[٢]. وحكى الجهشياري أن الفضل بن سهل (وكان مجوسيًّا) نقل ليحيى بن خالد البرمكي كتابًا من الفارسية إلى العربية، فأعجب بفهمه وبجودة عبارته، فقال له يحيى: إني أراك ذكيًّا، وستبلغ مبلغًا رفيعًا، فأسْلم، حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا، والإحسان إليك، فقال: نعم، أصلح الله الأمير، أُسْلِمُ على يديك، فقال له يحيى: لا، ودعا بسلام مولاه فقال: خذ بيد هذا الفتى وامضِ به إلى جعفر وقل له يدخل على المأمون، وكان المأمون في حجر جعفر حتى يسلم على يديه، ففعل وأسلم على يد المأمون[٣]، وهو الذي صار فيما بعدُ وزير المأمون، والذي لقب بذي

(١) طبري ١٠/ ١٠٠.
(٢) انظر البلاذري ص٤٣٦ و٤٣٧.
(٣) الوزراء ٢٨٧.

الرياستين. كما أسلم بعض الناس فرارًا من الجزية، حتى إن بعض الولاة كتب إلى الحجاج: «إن الخَرَاجَ قد انكسر، وإن أهل الذِّمَّة قد أسلموا، ولحقوا بالأمصار، فأخذ الحجاج منهم الجزية مع إسلامهم، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون!»[١]، ولكن هذه الجزية لم تكن بالمُرهِقة «فهي لا تؤخذ من المسكين الذي يُتَصدق عليه، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من ذمي يتصدق عليه، ولا من المترهبين الذي في الديارات إذا لم يكونوا من أهل اليسار، ولا تؤخذ الجزية من الشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل ولا شيء له»[٢]، ويدفع الغني ٤٨ درهمًا كل سنة، ويدفع الوسط ٢٤ درهمًا، والعمال والصناع ونحوهم ١٢ درهمًا[٣]. وهذا مقدار محتمل، لا يدعو كثيرين أن يهربوا من دينهم.

***

وكما أثَّر النصارى في المذاهب الإسلامية والعادات -كما أسلفنا- أثَّر المسلمون في النصارى، فقد ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام؛ من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي -أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين- ظهرت في سبتمانيا (Septimania)[٤] حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حق في ذلك، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبيعي ألا يكون فيه اعتراف[٥].

---

(١) ابن الأثير ٤/ ١٧٩.

(٢) الخراج لأبي يوسف.

(٣) والدرهم نحو قرشين مصريين ونصف قرش.

(٤) سبتمانيا: مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط.

(٥) خدابخش.

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (**Iconoclasts**) ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع الميلادي أو القرن الثالث والرابع الهجري ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل، فقد أصدر الإمبراطور الروماني ليو الثالث أمرًا سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمرًا آخر سنة ٧٣٠م يعد الإتيان بهذا وثنية. وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان البابا جريجوري الثاني والثالث وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة ايريني من مؤيدي عبادة الصور، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام، ويقولون: إن كلوديوس (**Cloudius**) أسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣ هجرية) والذي كان يحرق الصور والصلبان، وينهى عن عبادتها في أسقفيته، ولِدَ ورُبي في الأندلس الإسلامية[١]، وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة. روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفَر وقد سترتُ سَهْوَة لي بِقِرَامٍ فيه تماثيل، فلما رآه هتكه وتلوَّن وجهه، وقال: «**يا عائشة، أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله**»، قالت: فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين[٢]، والأحاديث في هذا الباب مستفيضة.

كذلك وجدت طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام[٣].

***

(١) خدابخش.

(٢) السهوة: النافذة بين الدارين، والقرام: الستر.

(٣) Halce's Christianity of Islam in Spairs ص١١٦.

ومسألة أخرى كبيرة الأهمية في عصرنا الذي نؤرخه؛ تلك هي أن تصور كثير من المسلمين للإسلام في ذلك العصر يختلف عن تصور المسلمين له في العصور الأولى، فحياة العربي الساذجة البسيطة السهلة تعقدت، والديانات المختلفة تسربت والأعاجم الذين كانوا وثنيين أو مانويين أو نحوهم دخلوا في الإسلام ولم تنَقَّ رءوسهم من كل ما علق بها من الديانات القديمة. وقد شاعوا في المدنيات المركبة المعقدة، فنظروا إلى الإسلام بعيونهم، لا بالعين العربية الأولى. وحق ما يقال: إن الأمم وإن اتحدت دينًا، فكل أمة يختلف نظرها في تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى، وهي تنظر إلى الدين من خلال تاريخها ونظمها الاجتماعية من خلال أديانها المتعاقبة، ومن خلال لغاتها وتقاليدها، ومن خلال ثقافتها وتربيتها، إلى غير ذلك. كل المسلمين يقولون: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ولكن نظر العالِم الواسع الثقافة إلى الإسلام غير نظر العامي الجاهل، وكلاهما غير نظر الصوفي، وهكذا. بل نظر المسلمين من المصريين -على وجه العموم- إلى الإسلام، يختلف في تفاصيله عن نظر الهنود المسلمين والأتراك المسلمين؛ لأن كل أمة تداول عليها من العوامل ما يخالف غيرها، وذلك -من غير شك- خالف بين أنظارهم وعقلياتهم، والناس كانوا ينظرون إلى الإسلام نظرًا يختلف باختلاف العصور، يعجبني في ذلك ما رواه البخاري والترمذي عن أنس بن مالك المتوفَّى سنة ٩٠هـ قال: «ما أعرف شيئًا مما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قيل: الصلاة؟ قال: أليس صنعتم ما صنعتم فيها!»[1]، فأنس رضي الله عنه قد شاهد عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الأمويين، ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف الأنظار والأعمال، فكيف إذا شاهد العباسيين ومن بعدهم. قد كان الإسلام سهلًا يسيرًا، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن هذا الدين يسر، ولن يشَادَّ الدينَ أحدٌ إلَّا غَلَبه**»، ويقول: «**لا**

(١) باب الاعتصام بالسنة.

تشددوا على أنفسكم فيُشَدَّد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[١]، وكان القاسم بن محمد يلبس الخز، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف، ويقعدان في مسجد المدينة، فلا ينكر هذا على هذا، ولا ذا على هذا[٢].

وكان هناك نزعة لبعض الصحابة في الغلو في الدين، فقاومها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كالذي كان بينه وبين عبد الله بن عمرو، فقد بلغه أنه لا ينام ولا يُفطر، ولا يؤدي حقوق أهله انهماكًا في العبادة، فقال له رسول الله: «**يا عبد الله، إن لك في رسول الله أسوة حسنة، فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم، ويؤدي إلى أهله حقوقهم. يا عبد الله، إن لله عليك حقًّا، وإن لبدنك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا**».

وبعد هذا، رأينا تشددًا في دين، وابتداعًا لتقاليد، وغُلوا في نواحٍ مختلفة، منهم من يلبس الصوف ويلتزمه، ومنهم من يغلو في الإنكار عليهم، «قدم حماد بن سلمة البصرة، فجاءه فَرْقد السِّنْجي، وعليه ثياب صوف، فقال له حماد: دع عنك نصرانيتك!»[٣]. وقال ابن السماك لأصحاب الصوف: والله لئن كان لبساكم وفْقًا لسرائركم، فقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، وإن كان مخالفًا لقد هلكتم! وكان بعض الموالي يتشدد في الوضوء والطهارة، ويغلو في ذلك غلوًّا لا يعرفه العرب، فكان العرب يكرهون منهم ذلك[٤]، إلى كثير من أمثال هذا.

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) العقد الفريد ١/ ٢٥٠.

(٣) العقد ١/ ٢٥٠.

(٤) انظر العقد ٢/ ٩١.

وهناك ما هو أهم من هذا؛ ذلك أن الناس في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبعده كانوا يقرءون القرآن أو يسمعونه فيُعْنَوْن بتفهم رُوحه، فإن عُني علماؤهم بشيء وراء ذلك فما يوضح الآية من سبب للنزول، أو استشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظًا غريبًا، أو أسلوبًا غامضًا. وأكثر ما روي لنا في الطبري وغيره عن الصحابة في تفسير القرآن هو من هذا القبيل، وما عرفنا في العصر الأول انحياز الصحابة إلى مذاهب دينية، وآراء في الملل والنحل. فلما كنا في آخر العصر الأموي رأينا الكلام في القدل، ورأينا المتكلمين فيه ينظرون إلى القرآن من خلال عقيدتهم، فمن قال بالجبرِ أوَّل كلَّ آيات الاختيار، ومن قال بالاختيار أوَّل كلَّ آيات الجبر. وسال بعد ذلك السيل في العصر العباسي، فصارت كل طائفة وأصحاب كل مذهب ينظرون إليه من خلال مذاهبهم. ولئن كان هذا النظر أفاد من ناحية الجدال بين المسلمين وغيرهم والدعوة إلى الإسلام -كما بينا في موقف المعتزلة- فقد أساء بإضعاف الروح الدينية وما كانت توحيه من إحياء القلب. أصبح علماءُ الكلام والمذاهب الدينية ينظرون إلى القرآن من خلال الفلسفة اليونانية، وذلك إن كان فيه مران عقلي وتوسيع لبعض مناحي الفكر، ففيه إضعاف لقوة الروح وحماسة القلب، سواء في ذلك المعتزلة والأشعرية والماتريدية، فكلهم استخدموا الأدلة اليونانية في العقائد الدينية، وهي غير الطريقة التي نحاها القرآن الكريم في الدعوة إلى الدين، لقد كادوا بعلمهم هذا يقطعون الصلة بين العقل والقلب، وينَمُّون الناحية العقلية على حساب قوة العاطفة، إن شئت فاقرأ -لإثبات قدرة الله- قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾، ثم اقرأ -في كتب علم الكلام- الجدل بين الأشعرية والماتريدية في أن القدرة صفة أزلية تتعلق وفق الإرادة، بمعنى صحة

صدور الأثر، والتمكن من الترك كما يقول الماتريدية، أو هي صفة تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها كما يقول الأشاعرة. فكم من الفرق بين المنهجين والروحين! أهمُّ غرض للقرآن الكريم أن يحيي الشعور ببيان علاقة الإنسان القوية بالله والعالم، وأن يعمل على ذلك بتغذية الحياة الروحية. أما المتكلمون فأرادوا أن يصلوا إلى ذلك من طريق المنطق، وشتان بين الطريقين! فحياة المنطق لا تملأ القلب حماسة، ولا تبعث في النفس حرارة إيمان، إنما تفعل ذلك الحياة الروحية.

لقد كثرت المذاهب والنِّحَل في ذلك العصر كثرة مدهشة، حتى يصفهم المأمون فيقول: «وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسًا، اعتقد به رئاسة، لعله يدعو فئة إلى ضرب من البدعة. ثم لعل كل رجل منهم يعادي من خالفه في الأمر الذي عقد به رئاسة بدعة ويشيط بدمه، وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك، إلا أن ذلك أمر لا رئاسة له فيه فسالَمَهَ عليه... إلخ»[1]. ونستعرض أسماء الفِرَق والمذاهب في كتال المِلَل والنِّحَلِ للشهرستاني، فندهش لكثرتها واختلافاتها. وهذه كلها كانت تنظر إلى القرآن الكريم بعين مذهبها وتفسره بما يلائمه. فالمعتزلي يطبِّق القرآن على مذهبه في الاختيار والصفات والتحسين والتقبيح العقليين، ويُؤوِّل ما لا يتفق ومذهبه، وكذلك يفعل الشيعي، وذلك يختلف كل الاختلاف عن نظر المسلمين الأولين إلى القرآن.

كان القرآن يدعو إلى الإيمان من طريقين: طريق النظر إلى العالم نفسه وطريق التاريخ. فهو يرى أن نظر الإنسان إلى العالم يدعم إيمانه ويقوي يقينه، ففي الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، والإبل كيف خلقت، والسماء كيف رفعت، والأرض كيف سطحت -آيات على الله، كما أن في الأحداث التاريخية من الأنبياء

(١) طيفور ٧٨.

وأممهم ما يدعو إلى الإيمان، وهذا النظر يناسب الناس على اختلافهم. ففي استطاعة العالم والجاهل أن ينال الإيمان من هذا الطريق، والدعوة إلى الحياة الروحية وحدها هي الدعوة التي يمكن أن توجه إلى الناس كافة. فلما أولع العلماء بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي حوَّلوا اتجاه القرآن نفسه إلى نوع من الثقافة العقلية والبراهين المنطقية، ودرسوا القرآن على النحو الذي يدرسون به الحساب والهندسة والهيئة، فكان في ذلك إضرار بالدين من ناحيته القلبية. ونتج عن ذلك تعقيد العقيدة الإسلامية السهلة السمحة، حتى صار يمثِّلها تعاليم المتكلمين من معتزلة وأشعرية، وأصبح أخيرًا يمثلها «العقائد النَّسَفية» و«متن السُّنُوسية»، وشعر بهذا النقص قوم من الصوفية المخلصين، فدعوا إلى الإسلام من منهجه الأول، ولكن سُرعان ما تحول بعضهم أيضًا إلى الفلسفة يستمد منها، كما سنبينه إن شاء الله.

وكان كلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا إلى القرآن من خلالها، فإذا أتت آية في الرعد والبرق شرحوها بكل ما وصل إليه علمهم في الظواهر الجوية، وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبقوا ما علموا من علم الهيئة، وإذا أتت إشارة في آية إلى جبر أو اختيار عددوا مذاهب المتكلمين فيها، وإذا أتت مسألة نحوية أفاضوا في الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين. وعلى الجملة، فقد كدَّسوا كل ما عرفوا من علوم حول الآيات القرآنية، وتضخم ذلك على توالي الأزمان، كما ترى بعد في تفسير الفخر الرازي، ففيه كل شيء وصل إليه المسلمون إلا شيئًا واحدًا، هو شرح روح القرآن.

***

ولكن إن كانت هذه نقطة ضعف في الفلسفة والعلوم من ناحية الدين، فقد كان لها فضل كبير من الناحية الدينية أيضًا؛ ذلك أن الناس واجهوا مشكلة كبرى في

العصر العباسي، رأوا مدنيات عظيمة لأمم مختلفة، ورثتها المملكة الإسلامية، ورأوا عادات مختلفة لأمم متعددة في جميع مناحي الحياة، ورأوا معاملات تجارية ونُظمًا للأحوال الشخصية تأثرت بديانات الأمم المختلفة. وهكذا في كل ناحية من النواحي الاجتماعية، سواء كانت نواحي اقتصادية أم سياسية أم قانونية. ورأوا -من ناحية أخرى- أن الإسلام أتى بأصول يجب المحافظة عليها، وأتت فيه نصوص كذلك على جزئيات يجب مراعاتها، ولكن في كل عصر تحدث من الأقضية والأحداث ما لم يكن حدث من قبل، ولم يرد فيه نص. فكان أمام العلماء أن ينظروا بإحدى العينين إلى قواعد الإسلام وتعاليمه، وبالعين الأخرى إلى المدنية العباسية، وما جَدَّ فيها من مظاهر وأحداث شتى، وكان لا بد من أن يطبقوا قواعد الإسلام على تلك الأحداث -ولم يكن هذا بالأمر الهين- نعم عرضت هذه المشكلة في تاريخ الإسلام من قِبَلِ العباسيين، قد واجهها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد أن فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار، ودخلت أمم مختلفة العقائد والنظم واللغات تحت حكم الإسلام، وبذل من الجهد هو ومن حوله من العلماء ما لا يقدَّر، وضرب مثلًا صالحًا لمن يأتي بعده؛ ولذلك نص المشترعون على العمل برأيه في كثير من نظام الفتح والجهاد والضرائب ونحو ذلك، وعدوه مثلهم الذي يحتذى. وواجه هذه المشكلة الأمويون، فحوروا في نظم الدواوين والنقود ونحوها، فخطوا بذلك خطوة ثانية. ولكن المشكلة أمام العباسيين كانت أعقد؛ لأن الدهشة -الفتح- قد زالت، والأمم التي دخلت في الإسلام استقرت ونَسَلَت جيلًا جديدًا، ورِث من آبائه وورث من المسلمين. والعباسيون -كما رأينا قبلُ- لم يشاءوا أن يعيشوا عيشة ساذجة كمن قبلهم من الأمويين، وتغلبت العناصر الأخرى كالفرس ذات الحضارة المركبة، فكان من ذلك كله أن أرادوا أن يضعوا نظمًا كاملة شاملة، وأن يواجهوا هذه المشاكل ويحلوها حلًّا بقوانين ومبادئ لا بأمر جزئي ولا برأي فردي، فأعانتهم العلوم في

ذلك العصر على هذا كله، ولولا العلوم ما استطاعوا. فرأينا أبا يوسف في كتابه «الخَراج» يضع النظام المالي لدولة الرشيد، فيقرر نظام الأرض ومسحها، وما يؤخذ منها وكيف يكون ذلك، ويضع نظام الضرائب غير الأرض مما يخرج البحر ونحوه، ويضع نظام الري من الآبار والأنهار. ونجد الأئمة الأربعة وغير الأربعة يجتهدون في وضع القوانين من مالية وجنائية وما يسمى بالأحوال الشخصية، وغير الفقهاء يضعون نظمًا إدارية كنظام الشرطة والجند والجيش، وقد تتعارض نظم الفقهاء مع نظم الإداريين فينظر في التوفيق بينهما، ويوضع نظام البريد والمصانع والتجارة ونحوها، كل هذه حركات كانت في الدولة العباسية نشيطة قوية، وكانت خاضعة في مبادئها للقواعد الإسلامية للإسلام؛ وبذلك نستطيع أن نقول: إنه في هذا العصر قُنن الإسلام، وأصبح هو النظام لحكومة ممدَّنة -بالمعنى العصري- نعم كان هناك خروج عن الإسلام في بعض التصرفات، وكان هناك نقص في تنفيذ الأحكام القضائية، وكان هناك نقص في إعطاء الأحكام الفقهية سلطة القانون، لكن هذا لا ينقض ما ذكرنا من أن الروح العامة -في التشريع ووضع النظم- كان تتقيد بأصول الإسلام، وأنه لولا اشتغال المسلمين بالعلم في فروعه المختلفة ما كان يمكن ذلك.

وهذا الإسلام بتعاليمه ونظم حكمه جعل كل الأمم الإسلامية على اختلاف أنواعها من آريين وساميين وحاميين يخضعون لسطانه، ويجرون في نظامه وقضائهم ومعاملاتهم على ما قنن من أحكامه. ومن أجل هذا أخذت الفروق بين الأمم تتقلص ويحل محلها وحدةٌ إسلامية. ومن أجل ذلك أيضًا كانت هذه الوحدة متجلية في العصر العباسي أكثر مما كان في العهد الأموي، ودخل الإسلام في الحياة العامة وفي السياسة وفي الإدارة، وتأثر التشريع بعادات الناس، وتأثرت عادات الناس بالتشريع.

كان الإسلام دينًا في مكة، وكان دينًا وحكمًا في المدينة، وكان دينًا وحكمًا ومدنية في بغداد وسائر المملكة الإسلامية في العصر العباسي. ولعل هذا من الأسباب التي دعت إلى دخول كثيرين في الإسلام في ذلك العصر، فقد كان الناس يتنفسون إسلامًا أينما حلوا، في البيت، في الشارع، في المحكمة، في المعاملات التجارية، في الضرائب، في التعليم، في كل مرافق الحياة.

***

وبعد، فقد كان للإسلام ثقافة واسعة من تفسير للقرآن واشتغال بالحديث وتشريع للأحكام، ولكن محل ذلك كله الكلام في الحركة العلمية إن شاء الله.

obeikandl.com